الفصل الأول

أسفار الديانة اليهوديّة

سنمهد لموضوع هذا الفصل بفقرتين: نلقي في أولاهما نظرة مجملة على تاريخ بني إسرائيل، لأنهم هم الذين تنسب إليهم هذه الديانة وهم الذين اختصوا بأسفارها، ونذكر في الفقرة الأخرى كلمة موجزة عن اللغات العبرية والآرامية واليونانية، لأنها اللغات التي استخدمت في تأليف هذه الأسفار وشرحها وترجمتها. وستفيدنا الفقرة الأخيرة كذلك عند الكلام عن أسفار العهد الجديد (أسفار الديانة المسيحية) في الفصل الثاني من هذا الكتاب، لأن اللغتين الأخيرتين من هذه اللغات هما اللتان استخدمتا في أسفار هذا العهد.

ثم نكرس الفقرات التالية للتعريف بأسفار العهد القديم وأسفار التلمود وهما المجموعتان اللتان تتألف منهما أسفار الديانة اليهودية، مع تحقيقات تتعلق بتأليف هذه الأسفار، وتاريخ تأليفهما، واللغات التي ألفت بها والتي ترجمت إليها، وما تشتمل عليه من عقيدة وشريعةٍ وقَصص، والأسفار الأخرى غير المعتمدة عند اليهود، والأسفار التي تعمَّد أحبارهم إخفاءها، والفرق اليهودية وما بينها من خلاف في العقائد والشرائع وصلة ذلك بالأسفار، وموقف الإسلام من هذه الأمور.

نظرة مجملة في تاريخ بني إسرائيل

هاجر يعقوب (الملقب بإسرائيل) هو وأولاده وحفدته من بلاد كنعان (فلسطين وما إليها) إلى مصر على أثر ما حاق بموطنهم القديم من مجاعة وما أصاب مراعيها من جفاف. وكان عددهم سبعين نفساً بحسب ما تذكره كتبهم المقدسة. وكان الوزير الأول بمصر هو يوسف عليه السلام أحد أبناء يعقوب نفسه. فأكرم مثوى أبيه وإخْوتِهِ، وعطّف عليهم قلب فرعون ملك مصر، وأقطعهم بأمره أرضاً من أخصب البقاع. وظلت سلالات بني إسرائيل بمصر حيناً من الدهر تنعم بكرم المصريين ورعايتهم وتقديرهم لجهودهم وكفاياتهم حتى لقد وصل كثير منهم إلى أعلى الدرجات والمناصب[1].

---

(1) إن حقيقة ما جاء به القرآن الكريم أولاً والدراسات التاريخية ثانياً تشير إلى أنَّ النبي يعقوب وأولاده وأحفاده لم يكونوا مستقرين في مكان وكانوا رعاة يتنقلون من مكان لمكان والواقع هو أن المؤلف يقول (ما حاق بموطنهم القديم) وكأنه يقر بأن أرض فلسطين هي موطنهم وهذا مخالف للحقيقة القرآنية وللحقائق التاريخيَّة. والذي يشير إلى أن مجاعة حدثت في بلاد كنعان هو قول التوراة. والقرآن الكريم أشار إلى أن أبناء النبي يعقوب ذهبوا يشترون القمح من مصر) لأن فلسطين بطبيعتها لا تنتج القمح إلا بما يكفي سكانها والذي دفع يعقوب وأبناءه للهجرة إلى مصر كون يوسف عليه السلام صار أميناً على إنتاج الحبوب بمعني أنه كان وزيراً للتموين. ولم يكن الوزير الأول كما أشار المؤلف.

ويقع المؤلف في خطأ تاريخي فاحش حيث يقول عطّف عليهم قلب فرعون ملك مصر، فالواقع يقول لنا: إن عصر وجود يوسف في مصر هو عصر الرعاة الهكسوس الذين استولوا على مصر العليا فانكفأ الفراعنة في الجنوب وأسسوا عاصمة طيبة عوضاً من عاصمتهم في الشمال وقد حظي يوسف وأبوه وإخوتُه برعاية ملك الهكسوس وليس برعاية فرعون لأن الفراعنة لم يكونوا موجودين آنذاك في الشمال، وليس غريباً أن يقتطع الملك أرضاً لبني إسرائيل طالما أن الأرض ليست في الأساس سوى أرض محتلة مستعمرة.

والحقيقة أن بني إسرائيل لم يكونوا ينعمون بكرم المصريين بل على العكس فقد حقد المصريون عليهم لأنهم اعتبروهم متعاونين مع الاحتلال الهكسوسي. ولم يصل سوى يوسف إلى مرتبة عالية في إدارة الحكم. وما أنْ تُوفي يوسف حتى بدأت الأمور تنقلب على بني إسرائيل والهكسوس. وراح الفراعنة يستعيدون بلادهم حتى تمت لهم العودة إلى جميع أراضي مصر وطُرد الهكسوس نهائياً من مصر.

ثم تغير موقف المصريين منهم فيما بعد إلى نقيض ما كان عليه، لخشيتهم من تكاثر عددهم الذي زاد على عدد المصريين أنفسهم ومن استفحال نفوذهم في البلاد[1]، فأصبحوا موضع مقتهم واضطهادهم، يسومونهم سوء العذاب، يذبِّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، ويتخذون منهم خدماً وعبيداً، ويسخرونهم في أشق الأعمال. وبقي بنو إسرائيل أمداً طويلاً يرزحون تحت نير الاستعباد، وتنوشهم معاول هذه الإبادة، حتى أرسل الله إليهم وإلى فرعون وقومه رسولين إسرائيليين من نسل لاوي أحد أبناء يعقوب هما موسى وأخوه هارون عليهما السلام[2]، يبلغانهم رسالة التوحيد، ويدعوانهم إلى عبادة الله وحده، وترك ما هم عليه من عبادة الأوثان والكواكب وأرواح الموتى والملوك والحيوان والنبات، ويقدمان لهم شريعة سماوية سمحة، هي الديانة اليهودية[3]، تفصل ما ينبغي أن يكونوا عليه في شؤون دينهم ودنياهم، فآمن بهما بنو إسرائيل، وكذَّب بهما فرعون وقومه إلا قليلاً منهم[4].

---

(1) لم يزد عدد اليهود على عدد المصريين بتاتاً. فإذا كان قول التوراة صحيحاً من أن يعقوب وأبناءه عندما هاجروا إلى مصر كانوا سبعين. فبعد أربعمائة سنة كم يصبح عددهم؟.

إذا حسبنا الذين ماتوا منهم والذين توالدوا. ومهما بلغ العدد لن يصل إلى ما ذكرته التوراة من أن عددهم عند الخروج بلغ ستمائة ألف رجلٍ عدا الأطفال.

(2) نسي المؤلف أن موسى ولد في قومه وألقته أمه في اليم. والتقطه آل فرعون وتربى في كنفهم وهذه القصة جوهرية في قصة موسى. ثم لم يذكر كيف قتل موسى أحد المصريين وهرب إلى سيناء ومنها إلى مدين حيث التقى هناك برجل صالح زوَّجه إحدى ابنتيه لقاء خدمته ثماني حجج. وهذه الفترة الحاسمة في حياة موسى هي التي مهدها الله له كي يتربى تربية الأنبياء ويستعد لتلقي خطاب الله. وبعد أن تزوج موسى عاد إلى قومه بأمر من الله وهناك التقى بأخيه هارون وذهبا إلى فرعون بأمر من الله.

(3) يذكر المؤلف أن موسى وأخاه قدما للفراعنة شريعةً سماوية سمحة هي الديانة اليهودية فالواقع لم تكن دعوة موسى ولم يكن ما قدمه شريعة يهودية. إنما قدم شريعة بني إسرائيل التي آتاها الله لموسى ولا يمكن أن تطلق عليها الديانة اليهودية. إذ إنّ أول من أطلق هذه التسمية على بني إسرائيل هو الملك الفارسي كورش. وهذا ما نصت عليه التوراة نفسها. ولم ينص عليها القرآن الكريم.

(4) لم يؤمن بنو إسرائيل بعقيدة موسى قطعاً، إنما التفوا حوله كونهم ظنوا أنه إنما جاء لينقذهم فقط من ظلم فرعون والهروب بهم من بطشه. والدليل أنهم انقلبوا على موسى بمجرد دخولهم إلى سيناء.

وظل موسى وهارون وقومهما بنو إسرائيل بعد ذلك في مشادَّات مع فرعون وقومه حتى أتيح[1] لهم الخروج من مصر إلى صحراء سيناء في قصة مشهورة ذكرت وقائعها في كثير من سور القرآن الكريم، وتحدث عنها بتفصيل «سفر الخروج» وهو أحد أسفار العهد القديم[2].

وقد استحال بنو إسرائيل في أثناء الفترة التالية لخروجهم من مصر حتى استقرارهم في أرض كنعان وتبلغ حوالي أربعين سنة[3] إلى قبائل من البدو الرحل يضربون في صحراء سيناء والمناطق المتاخمة لها متنقلين في أرجائها تائهين ـ حسب تعبير القرآن الكريم ـ في دروبها وفيافيها... وكان موسى قد طلب إليهم دخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم[4] وهي أرض فلسطين وقتال أهلها ووعدهم بالنصر فتقاعسوا عن ذلك جبناً وخوراً. فكتب الله عليهم هذا التيه حتى يفنى هذا الجيل الجبان وينشأ جيل آخر تربى على التخشن وتمرس بشؤون القتال.

وفي أثناء هذه الفترة تُوفي هارون ثم موسى عليهما السلام ولكن بعد أن أكمل الله لبني إسرائيل دينهم وأتم عليهم نعمته وبعد أن تلقى موسى من ربه التوراة[5]

---

(1) يقول المؤلف حتى أتيح لهم الخروج من مصر. وأرى أنه يجب تصحيح عبارة أتيح إلى عبارة استطاعوا الهرب في الليل حتى بلغوا حدود البحر ومن ثم الدخول إلى سيناء وكان فرعون قد لَحِقَهُمْ مع جنوده بعد مضي وقت طويل يُعَدُّ على الأقل باثنتي عشرة ساعة. ثم يغرق الله فرعون وجنوده.

(2) سفر الخروج هو السفر الثاني بعد سفر التكوين والأسفار الخمسة الأولى من التوراة العبرانية يقال لها أسفار موسى الخمسة وهي: 1 ـ سفر التكوين. 2 ـ الخروج. 3 ـ اللاويين. 4 ـ العدد. 5 ـ التثنية.

(3) الواقع أن دخول بني إسرائيل إلى سيناء ومكوثهم فيها ظل مدة زمنية طويلة وفي آخر الأمر وبعد أن نزل الكتاب على موسى وراح يعلمهم التشريع طلب منهم الدخول إلى الأرض المقدسة فرفضوا وجبنوا وبسبب ذلك قضى الله عليهم بالتيه أربعين سنة. فإذا جمعنا مدة مكوثهم في سيناء قبل أمر موسى لهم بدخول الأرض المقدسة مع مدة قضاء الله عليهم بالتيه تبين لنا أنهم مكثوا مدة تزيد على الثمانين سنة، ودليلنا أن التوراة نفسها تشير إلى موت موسى بعد هذه الحادثة وتقول إنه عاش 120 عاماً.

(4) يشير المؤلف إلى أن الأرض المقدسة هي فلسطين والواقع أن القرآن الكريم وصف فلسطين بالأرض المباركة وكذلك المسجد الأقصى. وعلى الأغلب كان يقصد موسى منطقة محدودة أطلق عليها المقدسة بسبب ارتباطها بتقديس معين له علاقة بموسى شخصياً وفلسطين آنذاك كانت قد تعرضت لغزوة يونانية احتلت خمس مناطق. على الساحل أربع وواحدة في الداخل وقد جرى صدام بين التسرب الإسرائيلي والمحتلين اليونان آنذاك.

(5) لقد آتى الله سبحانه موسى كتاباً وخصه به ولم ينزل التوراة عليه. وقد اقترن الكتاب بموسى ولم يقترن موسى بالتوراة، والتوراة حوت بقية من كتاب موسى وأسفاراً أخرى أنزلت بعد موسى على أنبياء آخرين.

﴿ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ (سورة المائدة: 44). وقد استوعبت جميع تفاصيل هذه الديانة عقائدها وشرائعها وأخلاقها وقصصها. ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (سورة الأعراف: 145). وحوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد أغار بنو إسرائيل بقيادة يوشع خليفة موسى بعد وفاته على بلاد كنعان (فلسطين وما إليها وهي الأرض المقدسة التي وعدهم الله بها). واحتلوها واستولوا على جميع ما فيها من خيرات وثروات بعد أن أبادوا معظم أهلها، واستعبدوا من أبقوا عليه منهم. فانتهت لديهم بذلك حياة الخشونة والبداوة والتنقل وافتتحوا عهد الدعة والحضارة والاستقرار. وسكنوا القرى والمدن والمنازل والقصور التي ورثوها عن الكنعانيين[1].

وأخذت مزاولتهم لشؤون دينهم تسير على طريق منظم تحت إشراف أحبارهم وربانييهم وفقهائهم وسدنة مساجدهم[2] ومذابحهم. وكان معظم هؤلاء يتألفون من نسل لاوي أحد أبناء يعقوب. وهم رهط موسى وهارون. أما رؤساؤهم السياسيون فكانوا في صدر هذه المدة من القضاة Juges. ثم لما اتسع نفوذ بني إسرائيل أصبح رؤساؤهم السياسيون ملوكاً ذوي سلطان كبير ومنهم داود وسليمان عليهما السلام[3].

وفي سنتي 596 و587 قبل الميلاد أغار بختنصر Nabuchonosor ملك بابل على فلسطين فأزال ملك بني إسرائيل وأسر منهم عدداً كبيراً أجلاهم إلى بابل وقد اشتهر ذلك

---

(1) الواقع أن التسرب الإسرائيلي لفلسطين لم يكن من خلال إغارتهم وحربهم ضد الفلسطينيين وهم أجبن من أن يقاتلوا، والواقع أيضاً أن التوراة وحدها تستفرد بالحديث عن غزوة يوشع بن نون. ولم يورد القرآن أي ذكر لذلك. وكذلك كل الدارسين والمؤرخين نفوا أن تكون وقعت غزوة لبلاد كنعان بالشكل الذي تذكره التوراة. وقد أشار الاركيولوجيون «اليهود الجدد» إلى أن الحديث عن غزوة يوشع اختراع توراتي ليس له ما يدعمه لا في علم التاريخ ولا علم الآثار.

(2) أورد المؤلف ـ مساجدهم ـ وهذا خطأ لأنه لم يطلق اسم مسجد إلا على أماكن عبادة المسلمين. فللديانات الأخرى صوامع وبيّع وصلوات. وليس مساجد.

(3) الواقع لم يتسع نفوذ بني إسرائيل بل ظل محصوراً في مناطق محددة تسربوا إليها وشاركوا أهلها من الكنعانيين في حياتهم حتى أنهم عبدوا آلهتهم كعشتاروت وعناة وبعل.

في التاريخ باسم نفي بابل، حيث ظلوا في الأسر زهاء خمسين سنة حتى تغلب كورش Cyrush ملك الفرس على البابليين عام 538 قبل الميلاد فأطلق سراح اليهود ورجع كثير منهم إلى فلسطين. واستعادوا بعض أوضاع حياتهم الأولى. ولكنهم فقدوا استقلالهم ولم ينعموا به بعد ذلك إلا فترات قصيرة فوقعوا أولاً تحت سيطرة الفرس. وظلوا كذلك زهاء قرنين كاملين. ثم وقعوا تحت سيطرة المقدونيين خلفاء الإسكندر الأكبر ثم تحت سيطرة الرومان[1].

وفي سنة 135 بعد الميلاد أخمد الرومان في عهد الإمبراطور هادريان Hadrien ثورة قام بها اليهود من (130 إلى 135) واستخدموا في إخمادها أعنف وسائل البطش فدمروا بلادهم وأخرجوهم من ديارهم، فأصبحوا مشتتين هائمين على وجوههم في مختلف الأرض حتى يومنا هذا على الرغم من إنشائهم دولتهم ومن هجرة شرذمة منهم إلى بلادهم[2] وإلى إجلاء بني إسرائيل من بلادهم في هاتين المرتين يشير القرآن الكريم إذ يقول:

---

(1) لقد أغار البابليون مرتين على اليهود المستعمرين لبعض أجزاء فلسطين مرة بقيادة سرجونو ومرة بقيادة بختنصر وكانت إغارة البابليين عبارة عن تحرير لأرض فلسطين من اليهود لأنهم لم يتعرضوا في إغارتهم للشعب العربي الكنعاني صاحب الأرض الحقيقي. وقد سبوا بني إسرائيل إلى بابل ومكثوا مسبيين أكثر من خمسين عاماً. ومع ضعف الدولة البابلية طمعت بها دولة الفرس الجديدة فوجد اليهود ضالتهم في الانتقام من البابليين فتعاونوا مع الفرس وملكهم كورش فكافأهم بأن سمح لبعضهم بالعودة لاحتلال بعض أجزاء فلسطين التي وقعت تحت نير الاستعمار الفارسي آنذاك. لكن السكان العرب الكنعانيين منعوهم من إقامة معبد لهم وتحت القمع الفارسي تم بناء معبد صغير لهم دام تشييده 20 عاماً وهذا ما صرحت به التوراة نفسها.

(2) يقول المؤلف: فدمروا بلادهم وأخرجوهم من ديارهم. والمفترض أن يتنبه إلى أن الديار التي كان يسكنها هؤلاء اليهود هي ديار محتلة مستعمرة وأصحابها الأصليون هم العرب الكنعانيون. ثم يقول ومن هجرة شرذمة منهم إلى بلادها. إن هذا الكلام يخالف الحقيقة التاريخية والمنطق. فالهجرة اليهودية جاءت مستعمرة طاردة للفلسطينيين ولم تكن هجرة يهود إلى بلادهم. فبلاد المتهودين الجديدة هي أوروبا وجميع المتهودين في فلسطين المحتلة ينتسبون إلى ثمانين عرقاً وقومية بحسب بلادهم التي جاؤوا منها وغالبيتهم آريون من العرق الأوروبي وليس لهم أي صلة بالمنطقة ولا بثقافتها ولا حتى بعقائدها.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ (الإسراء: 4 ـ 7).

وقد تنكب بنو إسرائيل الصراط المستقيم وخرجوا على تعاليم دينهم وعقائده عدة مرات في عهد موسى نفسه ومن بعده حتى عبدوا العجل وهارون بين ظهرانيهم وموسى يتلقى الألواح من ربه. وبعث الله فيهم من بعد موسى وهارون عدة رسل وأنبياء يهدونهم سواء السبيل. ويحاولون إنقاذهم مما انحدروا إليه من كفر وضلال. فما كانوا يلاقون منهم إلا الإعراض والتكذيب. بل كانوا يلاقون منهم أحياناً التعذيب والتقتيل. وفي هذا يخاطبهم القرآن الكريم إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة: 87).

ويقولُ: مبيناً تكذيبهم للقرآن الكريم ولأسفارهم نفسها وتمردهم على موسى والأنبياء من بعده ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ (البقرة: 91 ـ 93).

ويقول: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة: 61).

نظرة مجملة
في اللغات العبرية والآرامية واليونانية

استخدم في تأليف أسفار الديانة اليهودية وفي شرحها وترجمتها الأولى ثلاث لغات، وهي العبرية والآرامية واليونانية. ولذلك رأينا التمهيد لدراسة هذه الأسفار بكلمة مجملة عن هذه اللغات الثلاث. وسنفيد من هذا التمهيد في دراسة العهد الجديد الذي سنتحدث عنه في الفصل الثاني من هذا الكتاب لأن أسفار العهد كذلك قد استخدم في تأليفها وترجمتها الأولى لغتان من هذه اللغات الثلاث وهما الآرامية واليونانية.

اللغة العبرية:

تطلق اللغة العبرية على لُغةِ فرع واحد من العبريين، وهو فرع بني إسرائيل. وذلك أن الأمم العبرية تتألف من بني إسرائيل وشعوب أخرى كآل آدوم وآل مؤاب وآل عمون. ولكن لا يطلق اسم اللغة العبرية إلا على لغة بني إسرائيل وحدهم.

وقد اجتازت هذه اللغة مراحل كثيرة تأثرت في كل مرحلة منها، في مفرداتها وقواعدها وأساليبها، بعدة مؤثرات أهمها الشؤون السياسية وما طرأ على وحدة بني إسرائيل واستقلالهم وعلاقتهم بالشعوب الأخرى واحتكاك لغتهم وثقافاتهم بلغاتهم وثقافاتهم. فاللغة مرآة ينعكس فيها ما يكتنف الناطقين بها في حياتهم الاجتماعية والعقلية من ظروف ومؤثرات. وترجع أهم مراحل هذه اللغة إلى عصرين رئيسيين:

العصر الأول: من نشأة هذه اللغة (حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد) إلى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، أي طوال المدة التي كانت العبرية في أثنائها لغة حية يتكلم بها بنو إسرائيل. وفي المرحلة الأولى من هذا العصر، وهي المرحلة السابقة لنفي بابل (أي السابقة لسنة 587 قبل الميلاد) كانت العبرية فصيحة خالصة من الشوائب. بينما أخذت بوادر التأثر باللغة الآرامية تنفذ إليها في أثناء المرحلة الأخيرة، وهي اللاحقة لهذا النفي. وتسمى العبرية في هذا العصر بمرحلتيه «العبرية القديمة» أو «عبرية العهد القديم» لأن أهم ما وصل إلينا من آثارها في هذا العصر بمرحلتيه هي أسفار «العهد القديم».

والعصر الثاني: يبدأ من العهْدِ الذي انقرضت فيه اللغة العبرية من التخاطب لدى بني إسرائيل، وحلت محلها في ألسنتهم اللغة الآرامية، واقتصر استخدام العبرية على الكتابة وشؤون الدين، أي من أواخر القرن الرابع قبل الميلاد. وتمتاز العبرية في هذا العصر بشدة تأثرها باللغة الآرامية وببعض اللغات الهندية الأوروبية التي احتك اليهود بأهلها احتكاكاً سياسياً أو ثقافياً وخاصة اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية.

وتسمى العبرية في أثناء المرحلة الأولى من هذا العصر، وهي المرحلة التي تنتهي بالقرن السادس الميلادي «العبرية الربانية» أو «التلمودية»، لأن أهم ما وصل إلينا من آثارها في هذه المرحلة يتمثل في بحوث «الربانيين» في أسفار «المشناة» من «التلمود» كما سيأتي بيان ذلك[1].

اللغة الآرامية:

أصبحت اللغة الآرامية بعد تغلبها على اللغة العبرية في فلسطين وما إليها وعلى اللغة الأكادية (أو البابلية الآشورية) في مناطق العراق، أي منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد اللغة السائدة في التخاطب والكتابة في جميع بلاد العراق من جهة وفي سوريا وفلسطين وما إليهما من جهة أخرى.

وباللغة الآرامية كُتبت من أول الأمر بعض فصول وفقرات في بعض أسفار العهد القديم (بعض فصول من سفري عزرا ودانيال وفقرة واحدة من سفر أرمياء)، وكتب بها من أول الأمر كذلك إنجيل متى في العهد الجديد.

وباللغة الآرامية شرحت أسفار «المشناة» اليهودية، وسمى شرحها هذا «الجمارا» (وتألف من المتن العبري وهو «المشناة» والشرح الآرامي وهو «الجمارا» ما يسمى التلمود»).

إلى اللغة الآرامية ترجمت أسفار العهد القديم من أصلها العبري أحياناً ومن ترجمتها اليونانية أحياناً، وترجم إليها كذلك أسفار العهد الجديد من أصلها اليوناني[2].

---

(1) انظر تفاصيل اللغة العبرية وأدوارها وخصائصها ورسْمَها في كتابنا «فقه اللغة» الطبعة الثامنة، صفحات 41-51.

(2) انظر في تفاصيل اللغة الآرامية وأدوارها وفروعها في كتابنا «فقه اللغة» الطبعة الثامنة، صفحات 52-67.

اللغة اليونانية:

كانت اللغة اليونانية لغة الحديث والكتابة في جميع البلاد اليونانية الأصل وفي جميع مستعمرات اليونان بآسيا وأفريقيا، كما كانت لغة الآداب والثقافة والعلوم في كثير من البلدان غير اليونانية اللسان، وخاصة في بلاد العراق والشام وفلسطين وشمال إفريقيا، بل في مصر نفسها؛ فقد كان المصريون من عهد البطالسة إلى الفتح العربي يستخدمون المصرية القديمة في تخاطبهم وحديثهم العادي، بينما كانوا يستخدمون اليونانية في شؤون الكتابة والثقافة والآداب والعلوم.

وباللغة اليونانية ألفت جميع أسفار العهد الجديد ما عدا إنجيل متى، فالراجح أنه ألف بالآرامية ثم ترجم إلى اليونانية، وإن كان الأصل الآرامي لم يصل إلينا.

وإلى اللغة اليونانية تمت أقدم ترجمة لأسفار العهد القديم من أصلها العبري وهي الترجمة السبعينية (وهي التي تمت في سنتي 282 و283 ق.م على يد اثنين وسبعين حبراً من يهود مصر بأمر بطليموس فيلادلف، ومراعاة لعدد من قام بها سميت الترجمة السبعينية Version de Septante). وإلى اللغة اليونانية تمت كذلك أقدم ترجمة لإنجيل متى في العهد الجديد من أصله الآرامي.

ومن اللغة اليونانية ترجمت أسفار العهدين القديم والجديد إلى اللغة اللاتينية. وعن اليونانية واللاتينية ترجمت هذه الأسفار إلى معظم لغات العالم قديمها وحديثها[1].

---

(1) انظر في تفاصيل اللغة اليونانية وفروعها وآدابها في كتابنا «علم اللغة» الطبعة السادسة ص181، وكتابنا «الأدب اليوناني القديم ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعي».

العهد القديم

اعتمد اليهود في أسفارهم تسعة وثلاثين سفراً أطلق عليها في العصور المسيحية اسم «العهد القديم» Ancien Testament للتفرقة بينها وبين ما اعتمده المسيحيون من أسفارهم التي أطلقوا عليها اسم «العهد الجديد» Nouveau Testament واعتبروا هذه الأسفار التسعة والثلاثين أسفاراً مقدسة أي موحى بها.

ويراد بكلمة «العهد» في هاتين التسميتين ـ كما ذكرنا ذلك في مقدمة هذا الكتاب ـ ما يرادف معنى الميثاق، أي أن كلتا المجموعتين تمثل ميثاقاً أخذه الله على الناس وارتبطوا به معه alliance: فأولاهما تمثل ميثاقاً قديماً من عهد موسى؛ والأخرى ميثاقاً جديداً من عهد عيسى.

وتنقسم أسفار العهد القديم أربعة أقسام:

القسم الأول: كتب موسى أو الأسفار الخمسة أو «البانتاتيك»:

(Pentateuque: du grec "Penta" = cinq, et "teukhos" = livres)

وهي سفر التكوين وسفر الخروج وسفر التثنية وسفر اللاويين وسفر العدد ـ وتشتمل هذه الأسفار الخمسة على التوراة في نظر اليهود.

أما سفر التكوين Génése: فيقص تاريخ العالم من تكوين السماوات والأرض (ومن ثم سمي سفر «التكوين») إلى استقرار أولاد يعقوب أو إسرائيل (وهو اسم آخر أو لقب آخر ليعقوب) في أرض مصر، مع تفصيل في قصص آدم وحواء ونوح والطوفان ونسل سام (أحد أبناء نوح، وهو الذي انحدر منه شعب بني إسرائيل) وخاصة إبراهيم وإسحق ويوسف والأسباط، وإجمال فيما عدا ذلك.

وأما سفر الخروج Exode: فيعرض تاريخ بني إسرائيل في مصر وقصة موسى ورسالته وخروجه مع بني إسرائيل (ومن ثم سمي «الخروج») وتاريخهم في أثناء مرحلة «التيه» التي قضوها في صحراء سيناء واستغرقت أربعين عاماً، وهي التي يشير إليها القرآن الكريم إذ يقول: «قال إنها محرمة عليهم» (أي أرض الميعاد، وهي بلاد كنعان التي وعدهم الله بها) ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (المائدة: 26). وبجانب هذه القصص

يشتمل سفر الخروج على طائفة من أحكام الشريعة اليهودية في العبادات والمعاملات والعقوبات.. وما إلى ذلك.

أما سفر التثنية فقد شغل معظَمُه بأحكام الشريعة اليهودية خاصَّةً بالحروب والسياسة وشؤون الاقتصاد والمعاملات والعقوبات والعبادات... وهلم جرا. وسمي «التثنية» لأنه «يعيد» ذكر التعاليم التي تلقاها موسى من ربه وأمر بتبليغها إلى بني إسرائيل. (L'eutéronome, du grec "deutérônomion = seconde loi).

وأما سفر اللاويين (Lévitiques) فقد شغل معظَمُهُ بشؤون العبادات خاصَّةً ما تعلق منها بالأضحية والقرابين والمحرمات من الحيوانات والطيور. واللاويون هم نسل «لاوي» أو «ليفي» Lévi أحد أبناء يعقوب، ومنهم موسى وهرون. وكان اللاويون سدنة الهيكل والمشرفين على شؤون المذبح والأضحية والقرابين والقوامين على الشريعة اليهودية. ومن ثم نسب إليهم هذا الكتاب الذي شغل معظمه بما يشرفون عليه من عبادات ومعاملات.

وأما سفر العدد Nombres: فقد شغل معظمه بإحصائيات عن قبائل بني إسرائيل وجيوشهم وأموالهم وكثير مما يمكن إحصاؤه من شؤونهم (ومن ثم سمى سفر «العدد») وبأحكام تتعلق بطائفة من العبادات والمعاملات.

القسم الثاني: يسمى بالأسفار التاريخية:

وهي اثنا عشر سفراً تعرض لتاريخ بني إسرائيل بعد استيلائهم على بلاد الكنعانيين وبعد استقرارهم في فلسطين، وتفصل تاريخ قضاتهم وملوكهم وأيامهم والحوادث البارزة في شؤونهم. وهي أسفار يوشع[1] Josué والقضاة[2] Juges وراعوث[3] Ruth وصموئيل[4]

---

(1) هو فتى موسى وخليفته وهو الذي قاد جيش بني إسرائيل في دخول بلاد كنعان وإغارته على أهلها.

(2) هم الذين تولوا شؤون الحكم بعد استيلاء بني إسرائيل على بلاد كنعان.

(3) هي جدة داود من جهة أبيه.

(4) هو أحد أنبيائهم وآخر قضاتهم وهو الذي عين لهم أول ملوكهم، وقد وردت قصته في القرآن الكريم في آيات 246 ـ 248 من سورة البقرة، ووردت بعد ذلك قصة أول ملك من ملوكهم في آيات 249 ـ 251.

(سفران) والملوك[1] (سفران) وأخبار الأيام Croniques (سفران)[2] وعزرا[3] Esdras ونحميا[4] Néhemie وإستير[5] Esthr.

القسم الثالث: يسمى أسفار الأناشيد أو الأسفار الشعرية:

وهي أناشيد ومواعظ معظمها ديني مؤلفة تأليفاً شعرياً في أساليب بليغة، وعددها خمسة أسفار، وهي سفر أيوب[6] Job ومزامير داود Psaumes وأمثال سليمان Proverbes والجامعة من كلام سليمان Ecclésiaste ونشيد الأناشيد لسليمان Cantique des Cantiques.

القسم الرابع: يسمى أسفار الأنبياء:

وعددها سبعة عشر سفراً، وهي أسفار أشعياء Esaïe وأرميا Jérémie ومراثي أرميا Lamentations de Jérémie وحزقيال Ezechiel ودانيال Daniel ويوشع Osée ويوئيل Poël وعاموس Amos وعوبديا Abdias ويونس أو يونان Jonas وميخا Michée

---

(1) هم الذين تولوا الحكم بعد القضاة وأولهم طالوت. ثم داود وسليمان. ولكن السفر الأول من سفر الملوك يبدأ بتاريخ سليمان.

(2) تعرض الإصحاحات التسعة الأولى من السفر الأول لشجرة النسب من آدم إلى بني إسرائيل. وما بقي من هذا السفر يعرض لتاريخ داود. وتعرض الاصحاحات التسعة الأولى من السفر الثاني لتاريخ سليمان. وما بقي من إصحاحات هذا السفر يعرض للتاريخ السياسي لبني إسرائيل بعد سليمان.

(3) يرجع إليه الفضل في إعادة طائفة من بني إسرائيل في القرن الخامس ق.م من منفاهم في بابل إلى أوطانهم، وقد حرر الديانة اليهودية وأعاد إليها بعض معالمها وجدد بناء بيت المقدس. وإليه ينسب تحرير كثير من أسفار العهد القديم. ونال منزلة كبيرة في نفوس بني إسرائيل حتى لقد اعتقدت بعض فرقهم أنه ابن الله، وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ (آية 30 من سورة التوبة).

(4) ساعد عزرا في إعادة تشييد فلسطين وحصل من ملك الفرس على موافقته على ذلك.

(5) يهودية كانت زوجة لأحد ملوك الفرس وهو اخشرشيش Assuérus، وأحبطت مؤامرة دبرها أحد وزراء هذا الملك ضد اليهود، واسمه هامان (وهو غير هامان وزير فرعون الذي ورد ذكره في آية 38 من سورة القصص وفي آيتي 36، 37 من سورة غافر). وعملت على القضاء عليه وعلى أعوانه في المؤامرة، وكان ذلك بمساعدة يهودي اسمه مردخاي. ولذلك تسمى قصة إستير ومردخاي.

(6) يبدو من عبارات هذا السفر أن أيوب صاحبه من بني عيسو (أخي يعقوب التوأم) وليس من بني إسرائيل، وهو أيوب المذكور في القرآن.

ونـاحوم Nahum وحبقـوق Habakuk وصُـفُنْيا Sophonie وحجّـي Aggee وزكريـا Zacharie (وهو غير زكريا أبي يحى الذي ورد ذكـره في القـرآن والأناجيـل) وملاحـي أو ملاخيا Malachie.

وجميع هؤلاء من الأنبياء إسرائيليون وأرسلوا إلى بني إسرائيل ما عدا يـونس فإنـه يظهر من عبارات كتابه أنه مرسل إلى نينوى، وهو النبي يونس المذكور في القرآن.

هذا وقد ذكر كثير من مؤرخي العرب أنَّ بين أسفار العهد القديم كتباً ليست منـه، كما ذكروا كتباً لا وجود لها بين الكتب المعتمدة ولا بين الكتب الخفية عند اليهود، وأغفلوا ذكر طائفة من الأسفار المعتمدة، وحرفوا كثيراً من أسماء ما ذكروه منها[1].

التوراة أو أسفار موسى أو الأسفار الخمسة وتاريخ كلٍّ سفر منها

هذا، وأهم أسفار العهد القديم هي أسفار القـسم الأول التـي ينـسبها اليهـود إلى موسى ويعتقدون أنها بوحي من الله وأنها تتضمن التـوراة. ولكـن ظهـر للمحـدثين مـن الباحثين من ملاحظة اللغات والأساليب التي كتبت بها هذه الأسفار، وما تـشتمل عليـه من موضوعات وأحكام وتشاريع، والبيئات الاجتماعية والـسياسية التـي تـنعكس فيهـا، ظهر لهم من ملاحظة هذا كله أنها قد ألفت في عصور لاحقة لعصر موسى بأمد غير قصير (وعصر موسى يقع على الأرجح حوالي القرن الرابع عشر أو الثالث عـشر قبـل المـيلاد)، وأن معظم سفري التكوين والخروج قد ألف حوالي القرن التاسع قبل المـيلاد، وأن سـفر التثنية قد ألف في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، وأن سفري العدد واللاويين قد ألفـا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، أي بعد النفي البابلي الـذي سـبقت الإشـارة إليـه في

(1) انظر مثلاً ابن خلدون في المقدمة، وانظر تعليقاتي في هذا الصدد على مقدمة ابن خلدون بـصفحات 653 ـ 657 الجزء الثاني، طبعة نهضة مصر، الطبعة الثالثة. هذا، ومعظم الأسفار التي ذكرها ابن خلدون مـن زيادات الترجمة اللاتينية التي اعتمدتها الكنيسة الكاثوليكية، والتي سيأتي بيانها في الفقـرة الـسادسة مـن هذا الفصل.

الفقرة الأولى من هذا الفصل (وهو إجلاء بني إسرائيل إلى بابل سنة 587 قبل الميلاد)، وأنها جميعاً مكتوبة بأقلام اليهود، وتتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل، كما سنذكر ذلك عند كلامنا على العقيدة والشريعة في أسفار اليهود. فهي إذن تختلف كل الاختلاف عن التوراة التي يذكرها القرآن أنها كتاب سماوي مقدس أنزله الله على موسى[1]. وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (البقرة: 79) وإذ يقول: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ (النساء: 45 ـ 46)، وإذ يقول: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ (يعني اليهود) لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (المائدة: 13).

رأى عليه الصلاة والسلام ورقة من التوراة في يد عمر فأمره بإلقائها وألا يضيع وقته في قراءة ما بها من كذب وتحريف، ثم قال: «ألم آتكم بها بيضاء نقية؟! والله لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا اتباعي»؛ أي أن هذه التوراة المزعومة ملطخة بسواد التحريف والتغيير؛ وقد أنزل الله على الرسول ﷺ في القرآن ملخصاً لما كانت تشتمل عليه التوراة من عقيدة وشريعة وقصص، فأحياها في صورتها الصحيحة نقية بيضاء، وأن موسى لو بعث الآن لتبرأ من توراتهم واتبع قرآن محمد.

وعلى أساس هذه التحقيقات الحديثة بشأن التواريخ التي ألفت فيها هذه الكتب الخمسة، وضعنا سفر التثنية في ترتيبنا قبل سفري اللاويين والعدد لأنه قد ألف في عصر سابق للعصر الذي ألف فيه هذان السفران، وإن كان الترتيب التقليدي للعهد القديم يضعه في آخر الأسفار الخمسة.

---

(1) خص الله موسى بكتاب ولم تنزل التوراة جميعها على موسى. وقد اقترن موسى عليه السلام بكتاب في عدد من الآيات ولم يقترن بالتوراة.

بقية أسفار العهد القديم
وتاريخ كل سفر منها

وعلى أساس هذه التحقيقات الحديثة نفسها يرجح الباحثون أن قسماً من الأسفار الأخرى للعهد القديم قد ألف في الفترة الواقعة بين النصف الأخير من القرن التاسع وأوائل القرن السادس قبل الميلاد، ويشمل هذا القسم أسفار يوشع والقضاة وصموئيل والملوك والأمثال ونشيد الأناشيد ومعظم أسفار الأنبياء، وأن قسماً آخر قد ألف في الفترة الواقعة بين أوائل القرن السادس وأواخر القرن الرابع قبل الميلاد؛ ويشمل هذا القسم أسفار يونس وزكريا وقسماً من سفر دانيال.

اللغات التي ألفت بها أسفار
العهد القديم والتي ترجمت إليها

دونت جميع أسفار العهد القديم بلغة واحدة وهي اللغة العبرية. وإن كانت التراكيب والأساليب وبعض المفردات تختلف باختلاف هذه الأسفار وتنم عن العصور التي أُلِّفَ فيها كل سفر منها. ولا يستثنى من ذلك إلا بعض أجزاء يسيرة ألفت في أول الأمر باللغة الآرامية وهي بعض أجزاء من سِفْرَيْ عزرا Edras ودانيال وفقرة واحدة من سفر أرمياء Jérémie وكلمتان اثنتان في سفر التكوين وَرَدتا باللغة الآرامية عن قصد. ويرجح الباحثون أن ما ألف بالآرامية مباشرة من سفر عزرا يرجع تاريخ تدوينه إلى حوالي سنة 300 قبل الميلاد وأن ما ألف بها من سفر دانيال يرجع تاريخ تدوينه إلى سنة لاحقة لهذا التاريخ.

وقد أخطأ بعض مؤرخي العرب إذ قرروا أن جميع أسفار العهد القديم قد ألفت باللغة العبرانية.

وأقدم ترجمة للعهد القديم هي الترجمة اليونانية التي اشتهرت باسم «الترجمة السبعينية» Version de Septante وهي التي تمت في سنتي 282 و283 قبل الميلاد على يد

اثنين وسبعين حبراً من يهود مصر، ستة فقهاء من كل سبط من الأسباط الاثني عشر، بأمر بطليموس فيلادلف، وكان ذلك لفائدة اليهود الذين كانوا يسكنون مصر حينئذ ويتكلمون اليونانية.

وتشتمل الترجمة السبعينية: على أربعة عشر سفراً لا توجد في الأصل العبري الذي وصل إلينا. وهذه الأسفار هي: سفر طوبيا Tobi؛ وسفر الحكمة لسليمان Sagesse de Salomon؛ وأسفار المكابيين وعددها أربعة أسفار 4 Livres des Maccabées؛ وسفر يهوديت Judith؛ وسفر الكهنوت أو سفر الحكمة ليسوع بن سيراخ L'Ecclésiastique, ou Sagesse de Jésus fils de Sirach؛ ونشيد الأطفال الثلاثة Cantique des Trois Enfants؛ وسفر سوزان Suzane؛ وسفر بل والتنين Bel et le Dragon؛ وثلاثة أسفار منسوبة لعزرا زيادة على السفر المثبت في الأصل العبري؛ وبعض زيادات في سفر دانيال[1].

وعن الترجمة السبعينية ترجمت أسفار العهد القديم إلى اللغة اللاتينية La Vulgate Latine ومع أن هذه الترجمة اللاتينية كانت ترجمة للسبعينية اليونانية، فإنها لم تأت مطابقة لها كل المطابقة، فقد اشتملت على سفرين اثنين فقط للمكابيين (أسفار المكابيين في السبعينية أربعة أسفار)، وحذف منها أسفار عزرا الثلاثة التي زيدت في

---

(1) سفر طوبيا وهو وصف لسيرة يهودي اسمه طوبيا وسيرة ابنه. وكانا أسيرين في نينوى في القرن السابع ق.م وسفر الحكمة يشتمل على أمثلة حكمية وعظات بليغة لسليمان. وقد كتب لمقاومة الوثنية. والمكابيون هم الذين حكموا فلسطين حكماً وطنياً في عهد الرومان في القرن الثاني ق.م. وقد جاء اسمهم هذا من الشعار الذي كانوا يتخذونه ويكبرون به في الحروب، وهو «مي كاموخابجييم يهوفا؟» أي من مثلك بين الأمم يا إلهنا؟ أو ليس كمثلك شيء يا رب، أو كما تقول نحن «الله أكبر» فأخذ من كل كلمة الحرف الأول منها (م كاب ي) وجعل مجموع هذه الحروف (مكابي) اسماً أو وصفاً لكل منهم، ومن ثم اشتهروا باسم المكابيين ويهوديت هي أرملة يهودية غنية تقية. ويتضمن هذا السفر انتصار اليهود على قائد الجيش الآشوري بمساعدتها. وسفر الكهنوت هو مجموعة أمثال على غرار أمثال سليمان. وتسبيحة الفتية الثلاثة هي الكلمات التي يقال إنه قد سبح بها أصدقاء دانيال الثلاثة وهم في أتون النار. وسفر سوزان أو قصة سوسنة العفيفة. يشتمل على تمجيد النبي دانيال لقاض دحض وشاية ضد سوسنة العفيفة. وسفر «بل والتنين» عبارة عن قِصَّةٍ ألحقت بسفر دانيال، وتبين كيف اقتنع الملك كورش ببطلان عبادة الأصنام.

السبعينية على الأصل العبري وزادت سفر باروخ[1] كما اشتملت على بعض زيادات في سفر «إستير» وهي سبع إضافات لتكملة قصة استير وهامان ومردخاي، وفيما عدا ذلك لا يوجد بين الترجمتين خلاف ذو بال.

وفضلاً عن الأسفار التي تزيد بها الترجمتان اليونانية واللاتينية عن الأصل العبري، فإنهما في بعض المواضع لا تنطبقان على هذا الأصل تمام الانطباق. ولم يعرف إلى الآن على وجه اليقين الأسباب التي أدت إلى هذه الزيادات وهذا الاختلاف.

وقد أقرت الكنيسة الكاثوليكية المسيحية جميع الأسفار والأجزاء التي تزيد بها الترجمة اللاتينية عن الأصل العبري واعتبرتها كلها أسفاراً وأجزاء مقدسة واعتبرتها من أسفار العهد القديم وأجزائه. ولكن معظم البروتستانت من المسيحيين لا يعتبرون هذه الزيادات مقدسة ولا يعتبرونها من العهد القديم. أما اليهود أنفسهم فإنهم يدخلون في القسم الذي يسمونه «الأسفار الخفية» Apocryphe، والذي سيأتي الكلام عليه في الفقرة التالية، جميع ما تزيد به الترجمتان عن الأصل العبري من أسفار وأجزاء. و«الأسفار الخفية» عندهم لا يدخل شيء منها في العهد القديم ولكن بعضها يمكن أن يكون مقدساً في نظرهم[2].

وفضلاً عن الترجمتين اليونانية واللاتينية فإن العهد القديم قد ترجم إلى لغات أخرى كثيرة.

فقد ترجمه أحبار اليهود من مدرسة بيت المقدس من العبرية إلى «اللهجة الآرامية الحديثة» وهي إحدى لهجات اللغة الآرامية وكانت مستخدمة في منطقة فلسطين وما إليها. وساروا في ترجمتهم هذه على منهج خاص يختلف عن مناهج التراجم المعتادة. فكانوا يدونون الفقرة بنصها العبري ثم يتبعونها بترجمتها إلى اللغة الآرامية. وقد أطلق على كتبهم هذه اسم «الترجوم» ومن أشهرها ترجوم أنقلوس Onclos وهو ترجمة لأسفار

---

(1) باروخ (ek) Baruch وهو تلميذ أرمياء Jérémie وقد أملى عليه أرمياء تنبؤاته. وسفره هذا يمكن أن يعد من أسفار الأنبياء ويلحق بسفر أرمياء ومراثي أرمياء. ويتضمن هذا السفر صلوات وأدعية دينية لليهود ألفت بأسلوب رائع. ويرجع تاريخ باروخ إلى حوالي القرن السادس ق.م.

(2) من فرق اليهود المنقرضة فرقة كانت تسمى فرقة السامرية. وهذه الفرقة كانت لا تؤمن إلا بسبعة أسفار من العهد القديم. وهي أسفار موسى الخمسة وسفر يوشع وسفر القضاة، وتنكر ما عدا ذلك، كما سيأتي بيان ذلك في الفقرة 13 من هذا الفصل.

التوراة وحدها (الأسفار الخمسة أو أسفار موسى التي يتألف منها القسم الأول من العهد القديم وتتضمن التوراة في نظرهم)، وترجوم يوناثان وهو ترجمة لبقية أسفار العهد القديم. وقد ألفت ترجماتهم هذه في الفترة الواقعة (بين أوائل القرن الثاني وأواخر القرن الخامس بعد الميلاد)، وتم معظمها في القرنين الرابع والخامس الميلاديَّيْنِ.

وفي هذه الفترة نفسها (بين أوائل القرن الثاني وأواخر القرن الخامس بعد الميلاد) ترجمت مدرسة الكنيسة المسيحية السريانية العهدين القديم والجديد إلى اللغة السريانية وهي إحدى شعب اللغة الآرامية، ولم يترجموه مباشرة كما فعل أحبار اليهود من مدرسة بيت المقدس وإنما ترجموه عن الترجمة السبعينية اليونانية. والترجمة السريانية لا تكاد تبين عن روح اللغة العبرية التي ألفت بها هذه الأسفار.

وترجم المسيحيون بفلسطين العهدين القديم والجديد إلى اللغة الآرامية الفلسطينية الحديثة، وهي إحدى اللهجات الآرامية التي كانت مستخدمة في فلسطين وما إليها، وذلك بعد أن استقلوا في ثقافتهم وشؤونهم الدينية عن الكنيسة السريانية. وقد تم لهم هذا الاستقلال في أواخر القرن الخامس الميلادي. ولم يترجموه عن العبرية مباشرة كما فعل مواطنوهم اليهود من مدرسة بيت المقدس، وإنما ترجموه عن الترجمة السبعينية اليونانية كما فعل السريان. وجاءت ترجمتهم هذه ترجمة حرفية كالترجمة السريانية، بل تزيد في حرفيتها عن الترجمة السريانية، وتقل عنها في مبلغ إبانتها عن روح اللغة العبرية وأساليبها. وقد استغرقت ترجمتهم للعهدين القديم والجديد مدة طويلة تمتد من القرن الثامن إلى الحادي عشر بعد الميلاد.

وعن الترجمتين اليونانية واللاتينية ترجمت هذه الأسفار إلى معظم لغات العالم قديمها وحديثها[1].

---

(1) ظهرت حديثاً سنة 1970 ترجمة إنكليزية للكتاب المقدس كله (العهدين القديم والجديد) قام بها جماعة من اليهود المنتمين إلى هيئات دينية يهودية متمركزة في إنكلترا. وتختلف عن الترجمات الإنكليزية السابقة في أنها صيغت بأساليب اللغة العادية لا بالأساليب الدينية التقليدية القديمة، وفي اتسامها بالتحرر الكامل من قيود والتزامات جميع الترجمات السابقة، وفي تصرفها في معنى ومغزى بعض النصوص بالانحراف بها إلى غير اتجاهها الأصلي أو بإضافة أمور أخرى إليها، وفي اشتمالها على اثنى عشر سفراً من الأسفار المعروفة بالأسفار الخفية (انظر الفقرة التالية، وانظر في هذه الترجمة مقالاً للأستاذ شوقي عبد الحكيم في عدد 5/ 9/ 1970 من أخبار اليوم).

الأسفار الخفية عند اليهود

وبجانب هذه الأسفار التي يتألف منها العهد القديم توجد أسفار يهودية قديمة أخرى لم يدْخِلْها اليهود في أسفار هذا العهد. ويطلقون عليها اسم «الأسفار الخفية».

(Apocryphe du grec: "apokruphos", de "apokruptien = cacher)

وبعض هذه الأسفار الخفية غير مقدس ولا معتمد في نظر اليهود، بينما بعضها الآخر مقدس أي معترف بأنه موحى به ومعتمد في نظرهم، ولكن رأى أحبارهم وجوب إخفائه، وقرروا أنه لا يجوز أن يقف عليه الجمهور ولا أن يدرج في أسفار العهد القديم. وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول في صدد اليهود: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ (الأنعام: 91)، وإذ يقول: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (المائدة: 15)، وإذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ (البقرة: 159)، وإذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة:174).

ومن هذا يظهر أن السفر قد يكون خفياً ومقدساً في آن واحد عند اليهود. وفي هذا يختلف الاصطلاح اليهودي بعض الاختلاف في مدلول كلمة «الخفي» عن الاصطلاح المسيحي. فالمسيحيون يطلقون كلمة «الخفي» apocryphe على كل سفر يرون أنه غير مقدس أي غير موحى به، سواء أكان في نظرهم صحيحاً في حقائقه وفي نسبته إلى مؤلفه، أم كان في نظرهم غير صحيح في حقائقه أو في نسبته إلى مؤلفه أو في كلتيهما، كإنجيل برنابا وكتاب أعمال الرسل لبرنابا، فإن المسيحيين لا يعترفون بصحة ما جاء فيهما ولا بصحة نسبتهما إلى برنابا كما سيأتي بيان ذلك في الفقرتين السابقة والثامنة من الفصل الثاني من هذا الكتاب.

أسفار «التلمود» وتاريخ تأليفها

تألف من بحوث أحبار اليهود وربانييهم وفقهائهم المنتمين إلى فرقة الفريسيين (أشهر فرق اليهود كما سيأتي الكلام على ذلك في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل) في شؤون العقيدة والشريعة والتاريخ المقدس وما إلى ذلك ثلاثة وستون سفراً ألفت في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، وأطلق عليها اسم «المشناة» بمعنى المثنى أو المكرر عليها أي أنها تكرار وتسجيل للشريعة (Michna = repetition des lois, ou second lo). ثم شرحت هذه المشناة فيما بعد وأطلق على هذه الشروح اسم «الجمارا» أي الشرح أو التعليق Gémara = commentaires وألفت هذه الشروح في فترة ويلة تمتد من القرن الثاني إلى أواخر القرن السادس بعد الميلاد. وتألف من المتن والشرح (أي من المشناة والجمارا) ما أطلق عليه اسم «التلمود» بمعنى التعاليم Talmud = enseigaments.

اللغات التي ألفت بها أسفار التلمود والتي ترجمت إليها

ألفت أسفار «المشناة» باللغة العبرية، وألفت شروحها المسماة «الجمارا» باللغة الآرامية، فكان يدون المتن بلغته العبرية ثم يشرح بالآرامية.

وتسمى اللغة العبرية التي ألفت بها أسفار المشناة باللغة الربانية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الفقرة الثانية من هذا الفصل. وهي تختلف اختلافاً غير يسير عن اللغة العبرية التي ألفت بها أسفار العهد القديم. وذلك أن تأليف أسفار المشناة قد حدث بعد أن انقرضت العبرية من لغة التخاطب لدى بني إسرائيل وحلت محلها في ألسنتهم اللغة الآرامية، واقتصر استخدام العبرية لديهم على ميادين الكتابة وخاصة في شؤون الدين. ومن ثم تمتاز اللغة العبرية التي ألفت بها المشناة بشدة تأثرها باللغة الآرامية، كما يبدو فيها كثير من مظاهر بعْضِ اللغات الآرية ـ الهندية ـ الأوربية التي احتك اليهود بأهلها احتكاكاً سياسياً أو ثقافياً وخاصة اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية. فمع أن المشناة قد دونت باللغة العبرية فإن كثيراً من المفردات التي وردت فيها مقتبس من الآرامية، وتشتمل كذلك على عدد غير يسير من الكلمات اليونانية واللاتينية والفارسية.

ولكن هذا لا ينقص شيئاً من قيمتها اللغوية والتاريخية، وذلك لأن ما فيها من مفردات أجنبية لا يعد شيئاً مذكوراً بجانب ما استخدمته من المفردات العبرية التي لا يوجد بعضها في العهد القديم نفسه.

وأما شروح المشناة وهي المسماة «الجمارا» وهي التي ألفت باللغة الآرامية، فقد قامت بها مدرستان:

إحداهما مدرسة يهود فلسطين: وقد ألفوا شروحهم هذه باللهجة الآرامية الفلسطينية الحديثة وهي اللهجة نفسها التي استخدمها هؤلاء في ترجمة العهد القديم كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الفقرة السادسة من هذا الفصل. واستغرق لديهم تأليف هذه الشروح فترة طويلة تمتد من القرْن الثاني إلى أواخر القرْن الخامس بعد الميلاد. وإن كان معظمها قد تم في القرنين الرابع والخامس الميلاديين. وتألف من شروحهم هذه مع المتن نفسه (أي مع أسفار المشناة) ما يعرف بتلمود بيت المقدس.

والأخرى مدرسة يهود بابل. وقد ألفوا شروحهم هذه باللهجة الآرامية الجنوبية الشرقية (وهي إحدى لهجات اللغة الآرامية)، وشرعوا فيها منذ أوائل القرن الرابع بعد الميلاد ولم يفرغوا منها إلا في القرن السادس الميلادي. وتألف من شروحهم هذه مع المتن نفسه ما يعرف بتلمود بابل.

وعن اللغتين العبرية والآرامية ترجم التلمود إلى كثير من لغات العالم قديمها وحديثها.

العقيدة في أسفار اليهود وتطورها

كانت الديانة اليهودية في أصلها، كما ينبئنا بذلك القرآن الكريم، ديانة توحيد تتصف فيها الذات العلية بصفات الوحدة والكمال، والتجرد من جميع مظاهر النقص، والمخالفة للحوادث في كل شيء، كما هو الشأن في الدين الإسلامي.

ولكن يظهر من استقراء تاريخ اليهود، وما ورد بشأنهم في القرآن الكريم، وما ورد في أسفارهم نفسها، أن فهمهم للذات العلية لم يكن في أي عصر من عصورهم مطابقاً كل المطابقة لهذا الوضع، وأن فكرة الألوهية لديهم قد اجتازت المراحل الثلاث الآتية:

1 ـ فالقرآن الكريم يحدثنا أن بني إسرائيل لم تقو عقولهم في مبدأ الأمر على فهم الذات العلية الفهم الصحيح، وظنوا أنه من الممكن رؤيتها، بل علقوا إيمانهم بموسى ورسالته على رؤيتهم لله تعالى. وفي هذا يقول القرآن الكريم:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة: 55 ـ 56).

وينبئنا كذلك القرآن الكريم أنهم لم تطمئن نفوسهم إلى عبادة إله لا يستطيعون رؤيته، وطلبوا إلى موسى حينما رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم، أن يجعل لهم إلهاً يحسونه كما يحس هؤلاء آلهتهم. وفي هذا يقول القرآن الكريم:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ (الأعراف: 138 ـ 140).

وينبئنا كذلك القرآن الكريم، وتنبئنا أسفارهم نفسها، أنهم في أقدم عصورهم قد ارتدوا عن عبادة إلههم أكثر من مرة، فعبدوا العجل تارة والأصنام تارة أخرى. ومن الغريب أن سفر الخروج (وهو من أقدم أسفار توراتهم المزعومة) قد نسب إلى هارون نفسه عليه السلام أنه قد يسر لبني إسرائيل سبيل الشرك ودفعهم إلى الوثنية وعبادة الحيوان والأصنام، فصنع لهم بيده عجلاً من ذهب ليعبدوه من دون الله[1] كما سيأتي بيانه بتفصيل في الفقرة الثانية عشرة من هذا الفصل.

ويظهر من التأمل في أقدم سفرين من أسفار توراتهم المزعومة، وهما سفر التكوين وسفر الخروج، أن فكرة الألوهية ظلت مضطربة في عقولهم إلى نهاية المرحلة التي تم فيها تدوين هذين السفرين، أي إلى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد (بعد موسى بنحو خمسة قرون). فتصوروا الله تعالى في صورة مجسمة، ووصفوه بكثير من صفات النقص والضعف والكذب والغفلة والجهل وأشركوا معه آلهة آخرين وارتدوا أحياناً إلى عبادة الأصنام والحيوان. وظهر تصورهم هذا في كثير مما ورد في هذين السفرين.

---

(1) إصحاح 32 من سفر الخروج.

فمن ذلك ما يرويه سفر التكوين في قصة آدم وحواء وإخراجهما من الجنة، إذ يذكر أن الله تعالى قد نهاهما عن الأكل من شجرة المعرفة وخوّفهما مضلّلاً ومخفياً عنْهما حقيقة هذه الشجرة فذكر لهما أن الأكل منها يفضي إلى الموت، مع أن الأكل منها يفضي إلى رقي التفكير وانحسار أغطية الجهل وانبثاق نور المعرفة. ولكن الإله كان يريد إبقاءهما جاهلين حتى لا يشاركاه في صفة من أخص صفاته. ولما أغرى الشيطان حواء[1] بالأكل من هذه الشجرة وانساق معها زوجها، أدركا ما كان يجهلانه من قبل، فعرفا أنهما مكشوفا السوءتين وأنه لا يليق أن يقابلا ربهما على هذه الصورة. ولما قدم الإله نحوهما مخترقاً طرق الجنة، وسمعا صوته وحركته في أثناء سيره، اختبأا حتى لا يراهما عريانين، وأخذا يخصفان على عورتيهما من ورق الجنة. فناداهما ربهما وأخذ يستجوبهما، واستنتج من فعلتهما ومن استجوابهما أنه لابد أن يكونا قد أكلا من شجرة المعرفة، وأن ذلك قد جَعَلُهما يعرفان حقيقة أمْرِها، وأن الإنسان قد أصبح بذلك «أحد الآلهة لتمييزه بين الحسن والقبيح»، وأنه قد أصبح لزاماً أن يطرد من الجنة حتى لا تمتد يده إلى شجرة أخرى هي «شجرة الخلد» فيكفل لنفسه أرقى صفات الإله وهو البقاء[2].

وقد عرض القرآن الكريم في أكثر من سورة لعدة مواقف من قصة آدم وحواء وأكلهما من الشجرة وخروجهما من الجنة، بدون أن يبدو في أي موقف من هذه المواقف ما يتعارض مع كمال علم الله وقدرته ومخالفته للحوادث.

ومن ذلك أيضاً ما يذكره سفر التكوين من أن لله تعالى أولاداً من الذكور، وأن هؤلاء الذكور قد فتنهم جمال بنات الآدميين اللائي كان عددهن قد كثر في الأرض، فاتخذوهن خليلات، وولد لهم منهن نسل امتاز ببسطة كبيرة في الجسم، وهم الجبابرة الذين سكنوا الأرض قبل الطوفان[3].

---

(1) الواقع أن الشيطان بدأ بآدم أولاً. وحسب النص القرآني: (فوسوس إليه الشيطان قال: يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى)، لكن التوراة تحمل المرأة مسؤولية هذه الخطيئة لأنها تقف منها موقفاً معادياً، فهي تحتقرها وتحط من قدرها.

(2) الإصحاح الثالث من سفر التكوين.

(3) الإصحاح السادس من سفر التكوين فقرات 1 ـ 5.

ومن ذلك أيضاً ما يرويه سفر التكوين في قصة إهلاك قوم لوط وتدمير قريتي «سدوم» و«عمورة» إذ يذكر أن ثلاثة رجال وهم الله ومَلَكان معه قدموا على إبراهيم وهو جالس أمام خيمته، وأن إبراهيم قد عرف الله من بينهم ورجاه أن يستريحوا عنده قليلاً من وعثاء سفرهم، وقدم إليهم ماء لشربهم وغسل أرجلهم، وفطائر وعجلاً حنيذاً لطعامهم، فانتحى ثلاثتهم تحت ظل شجرة وأخذوا يأكلون مما قدمه إليهم، وإبراهيم جالس على مقربة منهم. ثم تفقد الإله زوجه سارة، وسأله عنها، وأخذ يبشرها ويبشر إبراهيم بأنه سيمر بهما في هذا الموعد نفسه من السنة القادمة فيجدهما قد رزقا غلاماً ذكياً. ثم اشتبك معه إبراهيم في نقاش وجدال ومساومة حول القريتين اللتين يريد إهلاكهما بغية أن يثنيه عن ذلك، لأن بعض أهلها أتقياء، ولا يصح أن يؤخذ المحسن بذنب المسيء[1].

وقد ذكر القرآن هذه القصة على حقيقتها، فبين أن الذين وفدوا على إبراهيم كانوا ملائكة مشكلين في صورة آدميين، فظنهم بشراً، فقدم إليهم طعاماً، فلم تصل أيديهم إليه، لأن الملائكة لا يأكلون. وفي هذا يقول القرآن الكريم:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾ (هود: 69 ـ 76).

ومن ذلك أيضاً ما يقرره سفر التكوين من أن الله تعالى بعد أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام استراح في اليوم السابع، وكان يوم سبت، وأن الله قد بارك هذا اليوم من أجل ذلك، فحرم فيه العمل[2]، أي أنه كالبشر، في حاجة إلى الراحة بعد بذل المجهود في عمل ما.

وعلى زعمهم هذا يرد الله تعالى في القرآن الكريم إذ يقول: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ (ق: 38)، أي لم يمسنا تعب حتى نحتاج إلى الراحة.

---

(1) الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين.

(2) الفقرات الأولى من الإصحاح الثاني من سفر التكوين.

ومن ذلك أيضاً ما يذكره سفر التكوين عن يعقوب وأنه لقي الله ذات ليلة وأخذ يصارعه حتى بزغ الفجر، بدون أن يستطيع الله سبيلاً إلى التغلب على يعقوب.

وحينئذ ضرب حق فخذ يعقوب فانخلع. ولما بلغ الوهن من الله مبلغه طلب إلى يعقوب أن يخلي سبيله لأنه قد طال أمد المصارعة وطلع الفجر. ولكن يعقوب لم يقبل أن يطلقه إلا إذا باركه. فقبل الله تعالى شرطه وباركه. وسأله عن اسمه، فقال يعقوب، فقال الله لن تسمى بعد الآن يعقوب، بل تسمى «إسرائيل» لأنك كنت قوياً على الله[1] (هذا هو أحد معاني كلمة إسرائيل في العبرية).

ومن ذلك أيضاً ما يقرره سفر الخروج من أن إلههم يفيد من الضحايا التي تقدم إليه وينتعش من رائحة الدخان المتصاعد من حرقها[2]. بل إن بعض فقرات من هذا السفر لتدل على أن إلههم كان يطلب إليهم أن يقدموا أولادهم ضحايا محرقة لإرضائه والتقرب إليه. فقد ورد في هذا السفر أن فرعون لم يسمح لبني إسرائيل بالخروج من مِصْرَ، فأنزل الله نقمته على المصريين، فكان يهلك أول مولود لكل أبوين من المصريين وأول مولود لكل أنثى من الحيوان في سائر بلاد مصر. ولما رأى فرعون وقومه ما حل بهم من العذاب استجابوا لرغبة بني إسرائيل، وأذنوا لهم بالخروج من مصر، وكان هذه الخروج أكبر حدث في تاريخهم[3]، وإليه يرجع الفضل في تحررهم من الاستعباد وفيما أصابوه من عز وسلطان فيما بعد. ولكي يظل بنو إسرائيل ذاكرين فضل الله عليهم في هذا الحدث، فرض عليهم أن يخصصوا للرب أول ما تلده أنثى كل إنسان وحيوان، أي أن يقدموه ضحية له. ولكن خفف عنهم فيما يتعلق بأول مولود من الآدميين، فشرع لهم فداءه بذبح من الضأن. وشرع لهم كذلك هذا الفداء فيما يتعلق بالحيوانات غير مأكولة اللحم[4].

---

(1) فقرات 24 ـ 32 من إصحاح 32 من سفر التكوين.

(2) انظر مثلاً فقرات 38 ـ 43 من الإصحاح التاسع والعشرين من سفر الخروج، وخاصة فقرة 41.

(3) ينكر علماء الآثار اليهود الجدد حادثة الخروج. ويرون أنه لا دليل على هذا الخروج إنما هو تلفيق توراتي صنعه أحبار اليهود والواقع أن القرآن الكريم يؤكد هذا الخروج كما تؤكده التوراة وإن اختلف في التفاصيل.

(4) وردت عبارة من مثلك بين الآلهة في العديد من أسفار التوراة وخاصة في المزامير التي تنسب إلى داود عليه السلام.

ويستدل من أقدم أسفارهم كذلك على أنهم كانوا يعتقدون تعدد الآلهة. فكانوا يرون أن ثم إله خاصاً بشعب إسرائيل يختلف عن آلهة الشعوب الأخرى[1].

2 ـ ثم أخذ تصورهم للذات العلية يرقى شيئاً فشيئاً، ويتخلص نوعاً ما من شوائب النقص والتجسيم، كما يبدو ذلك في أحدث أسفار توراتهم المزعومة كأسفار التثنية والعدد واللاويين.

غير أنه بقي لديهم الاعتقاد بأن لهم إله خاصاً بهم، وهو إله إسرائيل، وأنهم هم أولاده وأحباؤه، وأن لغيرهم من الأمم آلهة أخرى، وأن إلههم في صراع مع هذه الآلهة. ولم يتخلص إلههم هذا كل التخلص من صفات الحوادث، بل ظل عالقاً في نظرهم ببعض هذه الصفات. فمن ذلك أن أحدث أسفار توراتهم المزعومة من الأسفار الخمسة الأول، وهو سفر اللاويين يذكر في أكثر من موضع أن الضحايا المحرقة (وهي التي تحرق أجزاؤها في المذبح تحت إشراف أحد اللاويين) يرتاح لها الإله ويفيد منها، وينتعش من رائحة الدخان المتصاعد من حرقها، وأنه يغضب كل الغضب إذا لم تقدم إليه أو إذا قدمت إليه في صورة غير الصورة المقررة في شريعتهم، وأنه قد يصب حينئذ سوط عذابه على المقصرين أو غير المراعين لمراسم التقديم فيرسل عليهم ناراً تحرقهم، كما فعل مع ولديْن من أبناء هارون لم يحسنا تقديم الأضحية[2]. ومن ثم كانت طريقة حرق الأضحية وتصاعد دخانها هي الطريقة المقررة لديهم في معظم أنواع الأضحية والقرابين، حتى في قرابين النبات وما يصنع منه كالفطائر وما إليها[3].

ويرد الله تعالى في القرآن الكريم على مزاعمهم هذه، فيقرر أن الله لا يناله شيء من لحوم الأضاحي ولا من دمائها، وأنه قد شرع الأضحية لتكون مظهراً من مظاهر تقوى

---

(1) فقرات 2، 11 ـ 15 من إصحاح 13 من سفر الخروج.

(2) انظر إصحاحات سفر اللاويين. وقد ورد حادث ابنيْ هارون في الإصحاح العاشر من هذا السفر.

(3) انظر سفر اللاويين، وبخاصة الإصحاحات الأول والثاني والسادس والسابع والعاشر. وقد خصصت معظم إصحاحات هذا السفر لبيان وظائف اللاويين، وهم كهنة بني إسرائيل وفقهاؤهم. وكانوا يتألفون من نسل لاوي أو ليفي أحد أبناء يعقوب، وقد تخصص منهم بذلك نسل هارون عليه السلام، وكان أهم وظائفهم الإشراف على المذابح وتقديم الضحايا والقرابين.

الله وامتثال أوامره وشكره على نعمائه التي أسبغها على عباده، وخاصة على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، وفرصة للإحسان والتوسعة والبر بالفقراء والمساكين. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الحج: 37). ويقول فيما يقدم في الحج من الهدى: ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ (الحج: 28).

3 ـ ويظهر أنه بعد أن قربت عقيدتهم من التوحيد وتنزيه الإله من النقص، ارتكست مرة أخرى ارتكاساً كبيراً في العهد الذي ألف فيه التلمود (القرون الستّةِ الأولى بعد الميلاد).

فأسفار التلمود تظهر إله إسرائيل متصفاً بكثير من صفات الحوادث وصفات النقص. ويبدو ذلك على الأخص فيما يذكره التلمود عن جسم الإله وضخامة أعضائه، وما يرويه عن نشاطه وأعماله في الليل والنهار، وعن حالته بعد هدم الهيكل وتشريد بني إسرائيل، وما يقرره بصدد تخصيص أيام من كل عام لعبادة إله آخر صغير، وبصدد حرص الإله على أن تقدم له أضحية من الآدميين.

فقد ذكر العلامة ابن حزم في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» أن سفراً من أسفار التلمود يسمى «سفر توما» قد وصف جبهة خالقهم وعظم مساحتها فقال: إنها من أعلاها إلى أنفه خمسة آلاف ذراع، وأنه قد جاء في سفر آخر من أسفار هذا الكتاب يقال له «سادرناشيم» أن في رأس خالقهم تاجاً فيه ألف قنطار من ذهب وفي إصبعه خاتم تضيء منه الشمس والكواكب، وأن الملك الذي يخدم ذلك التاج اسمه «صندلفون»[1].

وورد في بعض أسفار التلمود أن الله يقضي الساعات الثلاث الأولى من النهار في مذاكرة الشريعة، والساعات الثلاث الثانية في شؤون الحكم بين الناس، والساعات الثلاث الثالثة في تدبير العيش للخلق، وأما الساعات الثلاث الأخيرة فيقضيها في اللعب مع الحوت ملك الأسماك، وهو حيوان كبير جداً يتسع حلقه لسمكة طولها ثلثمائة فرسخ بدون أن تُضايقَه. وقد رأى الله أن يحرمه من أنثاه حتى لا يتناسلا فيملآ الدنيا وحوشا

(1) ابن حزم: «الفصل في الملل والأهواء والنحل». صفحتي 163، 164 من الجزء الأول.

تهلك من فيها وتأتي على الحرث والنسل. ولهذا حبس الذكر بقوته الإلهية وقتل الأنثى وملَّحَها وحفظها لطعام المؤمنين في الفردوس. وأما ساعات الليل فيقضيها الإله في مذاكرة التلمود مع الملائكة ومع ملك الشياطين الذي يصعد إلى السماء كل ليلة ثم يهبط منها إلى الأرض بعد انتهاء هذه الندوة العلمية. وقد تغير هذا النظام بعد أن قدر الله هدم الهيكل وتشريد بني إسرائيل. فقد اعترف الإله بخطئه في هذا الصدد وندم على ما فعله، وخصص ثلاثة أرباع الليل للبكاء والندم. وكان إذا بكى سقطت من عينيه دمعتان في البحر فيسمع دويها في الآفاق، وتضطرب المياه وترتجف الأرض، فتنجم عن ذلك الزلازل. ويزعم التلمود أن الله يردد في أثناء بكائه ونحيبه عبارات تدل على ندمه مما فعل، فيقول: تباً لي أمرت بخراب بيتي وإحراق الهيكل وتشريد أولادي. ويقول حينما يسمع الناس يمجدونه: طوبى لمن يمجده الناس وهو مستحق لذلك، وويل للأب الذي يمجده أبناؤه مع عدم استحقاقه لذلك لأنه قد قضى عليهم بالتشريد والشقاء. وذكر العلامة ابن حزم في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» أنه قد جاء في بعض أسفار التلمود «أن رجلاً اسمه إسماعيل كان أثر خراب بيت المقدس سمع الله تعالى يئن كما تئن الحمامة ويبكي وهو يقول: الويل لمن أخرب بيته. وضعضع ركنه، وهدم قصره وموضع سكينته، ويلي على ما أخربت من بيتي، ويلي على ما فرقت من بنيّ وبناتي، قامتى منكسة حتى أبني بيتي وارد إليه بنيّ وبناتي. فلما شعر الله بوجود إسماعيل بجواره أخذ بثيابه وقال له: أسمعتني يا ابني إسماعيل؟ قال: لا يا رب. فقال له الرب: يا ابني إسماعيل بارك علي. فبارك عليه ومضى»[1].

ويقرر التلمود كذلك أن الله قد تستولي عليه نزوة غضب، فيقسم ليأتين أعمالاً شريرة أو غير عادلة، ثم يثوب إلى رشده فيتحلل من يمينه، كما حدث يوم أن غضب على بني إسرائيل في الصحراء وأقسم أن يبيدهم ثم رجع عن عزمه وتحلل من يمينه بعد أن انقشعت نزوة غضبه.

---

(1) المرجع السابق ص164، من الجزء الأول. عبارة ابن حزم: «قال هذا الكلب والجيفة المنتنة: فباركت عليه ومضيت».

ويستدل من أسفار تلمودهم كذلك أنهم كانوا يخصصون عشرة أيام من أول أكتوبر يعبدون فيها رباً آخر غير إلههم، ويطلقون عليه اسم الرب الصغير، وهذا الرب الصغير هو صندلفون الملك خادم التاج الذي في رأس معبودهم[1].

وفي هذه المرحلة اعتقدت بعض فرقهم بوجود ابن الله، واتخذت بعض فرقهم أحبارهم أرباباً من دون الله، كما يخبر بذلك القرآن الكريم عنهم وعن النصارى، إذ يقول: «وقالت اليهود عزير ابن الله» (وهو عزرا Esdras)[2] ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ (أي واتخذ النصارى المسيح بن مريم إلهَ كذلك) وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ (التوبة: 30 ـ 31).

وفي هذه المرحلة كذلك زادت عقائدهم انحرافاً ووحشية فيما يتعلق بشؤون الأضحية والقرابين. فأسفار تلمودهم تحثهم على ذبح الآدميين من غير بني إسرائيل وتقديمهم قرباناً لإلههم، ومزج دمائهم بعجين الفطائر المقدسة التي يتناولونها في أعيادهم وأفراحهم الدينية، وبخاصة عيد الفصح وعيد إستير[3] ومراسم ختان الأطفال، واستخدام هذه الدماء في طقوس سحرهم وشعوذتهم. وتزعم هذه الأسفار أن ذلك من أفضل ما يتقرب به اليهودي إلى ربه وما تقر به عين إلههم.

أما عيد الفصح (فصح أي الفسح أو الخروج أو المرور) فيقيمه اليهود في اليوم الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم الدينية وهو شهر نيسان (ويقع ذلك في شهر أبريل) وتمتد احتفالاتهم به سبعة أيام بعد يوم العيد نفسه، فينتهي احتفالهم به في اليوم

---

(1) المرجع السابق ص165، من الجزء الأول.

(2) يذكر ابن حزم في المرجع السابق أن الصدوقية «وهم ينتسبون إلى رجل يقال له صدوق، قد انفردوا من بين فرق اليهود، باعتقادهم أن العزيرَ ابن الله، تعالى الله عن ذلك وكانوا بجهة اليمن».

(3) إستير امرأة يهودية زوّجها اليهود من كورش ملك الفرس ليتقربوا إليه ويأذن لهم بإبادة البابليين والعودة لاحتلال فلسطين، وإستير اسم مأخوذ من عشتار الآلهة الوثنية عند الكنعانيين وغيرهم.

الحادي والعشرين من شهر نيسان، وهو اليوم الذي تذكر توراتهم أن الله أغرق فيه فرعون وجنده ونجّى موسى وبني إسرائيل ويسّر لهم الخروج من مصر.

ويحتفلون فيه بنجاة موسى وبني إسرائيل من فرعون وقومه وخروجهم من مصر[1].

وأما عيد إستير أو البوريم فيقع في شهر فبراير أو شهر مارس من كل سنة. ويحتفل فيه اليهود بذكرى نجاتهم من مذبحة تذكر أسفار العهد القديم أنها كانت تتهددهم وأنهم قد نجوا منها بفضل امرأة إسرائيلية تسمى إستير. فتروي هذه الأسفار أن إستير كانت زوجة لأحد ملوك الفرس. وكان لهذا الملك وزير يسمى هامان. وقد أخذ هذا الوزير يعمل على استصدار أمر من الملك بقتل اليهود. فأحبطت إستير كيده ودبرت مؤامرة قضت عليه وعلى أنصاره ومكنت اليهود من ذبح عشرات الألوف من بني قومه كان منهم كثير من الأطفال والنساء. وقد خصص لهذه القصة سفر من أسفار العهد القديم سمي باسم هذه المرأة[2]. وكان ذلك بمساعدة يهودي اسمه مردخاي. ولذلك يسمى هذا السفر «سفر إستير ومردخاي».

وأما مراسم ختان الأطفال فهي مراسم معقَّدَة يقيمها اليهود بمناسبة ختان أبنائهم، والختان من أهم شعائر دينهم، بل إنهم ليعتبرونه أكبر مميز بين اليهودي وغير اليهودي[3].

وأما طقوس السحر والشعوذة لدى اليهود، فقد أفرد لها التلمود أبواباً كثيرة، بل لقد اعترفت أسفار العهد القديم نفسها بمزاولة اليهود لها[4].

وتختار الذبائح في عيد الفصح من الأطفال الذين لا تتجاوز سنهم العاشرة أو تزيد عنها قليلاً. ويمزج دم الضحية بعجين الفطائر قبل تجفيفه أو بعد تجفيفه. وتختار ذبائح عيد البوريم أو إستير من الشباب البالغين أو من الكبار. ويؤخذ دم الضحية ويجفف على

---

(1) انظر فقرات 5 ـ 9 من إصحاح 23 من سفر اللاويين.

(2) انظر فقرة 3 من هذا الفصل.

(3) انظر مثلاً الإصحاح الخامس من سفر التثنية.

(4) انظر مثلاً إصحاح 57 من سفر أشعياء.

صورة حبوب تمزج بعجين الفطائر. وأما ضحايا أفراح الختان فيظهر أنها كانت تختار في الغالب من الأطفال وكذلك ضحايا السحر والشعوذة، بدليل ما ورد في صددها في سفر أشعيا إذ يقول في إصحاحه السابع والخمسين مخاطباً بني إسرائيل: «أقبلوا يا بني السحرة... ألستم أنتم الذين يذبحون الأطفال في الوديان وتحت شقوق الصخور؟ أي لإتمام عمليات السحر التي ورثتموها عن آبائكم وأمهاتكم».

ويستنزف اليهود دم ضحاياهم هذه بطرائق كثيرة: فأحياناً يتم ذلك عن طريق ما يسمى «البرميل الإبري» وهو برميل مثبت على جوانبه من الداخل إبر حادة توضع فيه الضحية حية فتغرز هذه الإبر في جسمها، وتسيل الدماء ببطء من مختلف أعضائها، وتظل كذلك في عذاب أليم حتى تفيض روحها، بينما يكون اليهود الملتفون حول هذا البرميل في أكبر نشوة بما يبعثه هذا المنظر في نفوسهم من لذة وسرور. وينحدر الدم إلى قاع البرميل، ثم يصب في إناء معد لجمعه. وأحياناً تقطع شرايين الضحية في عدة مواضع ليتدفق الدَّمُ من جروحها، وأحياناً تذبح الضحية كما تذبح الشاة ويؤخذ دمها.

وبعد أن يتجمع الدم بطريقة من الطرق السابقة أو غيرها تسلم إلى الحاخام أو الكاهن أو الساحر الذي يقوم باستخدامها في إعداد الفطائر المقدسة أو في عمليات السحر.

وتدل شواهد كثيرة على أنهم لم ينفكوا منذ عهد بعيد، ولا ينفكون في الوقت الحاضر، عن مزاولة هذه الجرائم في كثير من بلاد العالم باسم دينهم ووصايا تلمودهم.

وقد عني الأستاذ أرنولد ليز بجمع أهم ما ثبت اقتراف اليهود له من هذه الجرائم في مختلف بلاد أوربا وآسيا منذ منتصف القرن الثاني عشر إلى نهاية العقد الثالث من القرن العشرين، ودونها في كتاب نشره سنة 1038 تحت عنوان «طقوس الاغتيال اليهودية» Aronld Leese: Jewish Ritual Murder.

فذكر نحو ستين حادثاً ثبتت الجريمة في كثير منها بأدلة قاطعة وباعتراف المتهمين أنفسهم أمام القضاء، وحكم في بعضها على المجرمين بالإعدام ونفذ فيهم الحكم.

وقد نقل صديقنا المرحوم الأستاذ عبد الله التل في كتابه القيم «خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية» عن الأستاذ ليز هذه الحوادث بتفاصيلها وعلق عليها بأن هذه

الجرائم التي عرفت في التاريخ ووصلت إلى المحاكم وجرى فيها تحقيق ليست شيئاً مذكوراً إذا ما قيست بالجرائم التي ارتكبها اليهود من هذا القبيل ولم يصل علمها إلى أحد ولم تصل إلى المحاكم «وأن آلاف الأطفال وغير الأطفال الذين يختفون في معظم أنحاء العالم هم في الغالب ضحايا الطقوس الدينية اليهودية، ولابد أن تكون دماؤهم قد استقرت في بطون اليهود مع الفطائر القذرة التي يتناولونها في أعيادهم».

ومن أشنع هذه الحوادث حادثة دمشق 1840 التي راح ضحيتها الأب توما وخادمه إبراهيم عمار. وقد قص قصتها الأستاذ عبد الله التل في كتابه السابق ذكره إذ يقول: «الأب فرانسوا أنطون توما قسيس إيطالي انتقل إلى دمشق للخدمة في أديرتها. وعمل طوال ثلاث وثلاثين سنة بإخلاص وغيرة وحنان خادماً لجميع الطوائف، لا يفرق بين دين ودين، يعالج المرضى مجاناً، ويطعِّم الناس ضد الأوبئة. وعرف في دمشق مثالاً للنبل والخلق الكريم. وفي يوم الأربعاء 2 من ذي الحجة 1255 (هـ) الموافق 5 من فبراير 1840م طُلب الأب توما لحارة اليهود لتطعيم طفل ضد الجدري. وفي عودته مر بصديقه اليهودي داود هراري. فاستدعاه إلى دارِهِ فلبى الدعوة. وكان في الدار شقيقان لداود هراري وعمه واثنان من حاخامات اليهود. ثم انقض هؤلاء جميعاً على الأب توما وقيدوه من قدميه ويديه ووضعوا منديلاً على فمه، وبعد غروب الشمس استدعوا حلاقاً يهودياً اسمه سليمان وأمروه بذبح القسيس فخاف وتردد. فما كان من داود هراري صديق الأب توما إلا أن تناول السكين بنفسه ونحر الضحية. ثم جاء أخوه هارون هراري وأتم عملية الذبح. وجمعوا الدم في وعاء ثم نقلوه إلى قارورة كبيرة وسلموه إلى حاخام باشا يعقوب العنتابي الذي تمت العملية بناء على أوامره، نظراً لحاجته إلى الدم لاستعماله في فطائر عيد البوريم (إستير) الذي كان يقع في ذلك العام في الرابع عشر من فبراير. وقطعوا جثة الضّحيَّة إرباً إرباً، ووضعوها في أكياس وقذفوا بها في مصرف قريب من دارهم. ولم يكتفوا بالقسيس، بل انتظروا مجيء خادمه إبراهيم عمار للبحث عنه، فأدخلوه إلى منزل اليهودي يحيى ماهر فارحي وذبحوه وأخذوا دمه إلى الحاخام باشا».

«وفي أثناء التحقيق قدم جميع المتهمين في تلك المذبحة اعترافات كاملة مذهلة وعثرت السلطات على جثتي القسيس وخادمه».

«وقد نشرت التحقيقات والمحاكمة في عدة كتب أوربية. ومازالت محفوظة في سجلات وزارة العدل بدمشق. ونشرت بالتفصيل في كتاب للدكتور روهلنج (ترجمه إلى العربية الدكتور يوسف نصر الله سنة 1899 ميلادية تحت عنوان: «الكنز المرصود في قواعد التلمود».

بل لقد شهد شاهد من أهلهم، ومؤرخ من أقدم مؤرخيهم وأشهرهم وهو المؤرخ اليهودي يوسفيوس (فلافيوس يوسفيوس المولود سنة 37 ميلادية والمتوفى 95) بأنهم ما كانوا يقتصرون على سرب دماء ضحاياهم ومزجها بعجين فطائرهم، بل كانوا يأكلون كذلك قطعاً من لحومهم. فقد ذكر هذا المؤرخ أن ملك اليونان أنطونيوس الرابع الذي تبوأ العرش سنة 174 قبل الميلاد وفتح مدينة أورشليم، حينما دخل هذه المدينة وجد في بعض أنحاء الهيكل رجلاً يونانياً كان اليهود قد حبسوه في هذا المكان، وكانوا يقدمون له أحسن الأطعمة ليسمن ويزكو لحمه، حتى يأتي يوم يخرجون به إلى إحدى الغابات، فيذبحونه ويشربون دمه ويأكلون شيئاً من لحمه، ويحرقون باقيه، وينثرون رماده في الصحراء، وأن ذلك كان تطبيقاً لوصية دينية لا تسعهم مخالفتها، وأنهم كانوا يكررون فعلتهم هذه كل عام مع واحد من اليونان، وأن هذا السجين قد استرحم الملك أن ينقذه فأنقذه.

هذا، وقد كانت الديانة اليهودية في أصلها تقرر البعث والنشور واليوم الآخر والحساب والجنة والنار كما ينبئ بذلك القرآن الكريم. ولكن أسفار العهد القديم التي بين أيدينا الآن قد خلت من ذكر اليوم الآخر ونعيمه وجحيمه.

ومن ثم لا نجد من بين فرقهم الشهيرة من يؤمن باليوم الآخر على الوجه الذي يقرره الإسلام. ففرقة الصدوقيّين[1] تنكر قيام الأموات وتعتقد أن عقاب العصاة وإثابة المتقين إنما يحصلان في حياتهم. وفرقة الفريسيين[2] تعتقد أن الصالحين من الأموات سينشرون في هذه الأرض ليشتركوا في ملك المسيح الذي سيأتي في آخر الزمن، لينقذ الناس من ضلالهم ويدخلهم جميعاً في ديانة موسى، أي أن بعث هؤلاء سيحصل في الحياة

(1) انظر تعليق 57. والفقرة 13 من هذا الفصل.

(2) انظر الفقرة 13 من هذا الفصل.

الدنيا. فمَهْمَا يكن من خلاف بين الفرقتين فإنهما تتفقان في إنكار اليوم الآخر على النحو الذي يقرره الإسلام.

وقد ورد ـ في بعض فقرات التلمود ـ ذكر للجنة والنار، ولكن في صورة مضطربة أدنى إلى الخرافة والأساطير منها إلى حقائق العقيدة. فتذكر هذه الفقرات أن الجنة تأوي إليها الأرواح الزكية وأنه لا يدخلها إلا اليهود، وأن أهلها يطعمون من لحم أنثى الحوت المملحة التي تقدم ذكرها[1]، كما يتناولون لحم طير كبير لذيذ الطعم ولحم إوزٍّ سمين، وأن شرابهم فيها نبيذ معتق عصره الله في اليوم الثاني من الأيام التي خلق فيها العالم، وأن النار لغير اليهود من المسلمين والمسيحيين ومن إليهم ـ ويظهر أن بعض فرق غير شهيرة من فرق اليهود كانت تذهب في عقيدتها إلى ظاهر ما يقرره التلمود في هذه الفقرات، فكانت تفسرها بمدلولها الحقيقي لا بمدلولها المجازي.

ويظهر أن القرآن الكريم يشير إلى هذه الفروق ويرد عليها إذ يقول: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ (أي وقالت بعض فرق اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً وقالت بعض فرق النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً) ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (البقرة: 111 ـ 112).

وفي هذه الأمور جميعاً دليل آخر على أن أسفارهم هذه كلها من صنع أيديهم وعلى مبلغ الخلاف بين توراتهم المزعومة والتوراة الصحيحة التي أنزلها الله تعالى، وكذلك الكتاب الذي آتاهُ الله لموسى نوراً وهدى للناس.

هذا وينبئنا القرآن الكريم أنَّ من بينهم في كل عصر، حتى في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه، بعض أفراد عصمهم الله من زيغ العقيدة فآمنوا بما جاء في التوراة[2] الصحيحة التي أنزلها الله على موسى، وأتيح لهم الاحتفاظ بجميع أسفارها أو ببعضها نقية طاهرة خالية من التحريف. وفي هذا يقول الله تعالى:

---

(1) انظر رقم 3 من فقرة 10 من هذا الفصل.

(2) سبق أن ذكرنا أن الله سبحانه وتعالى خص موسى بكتاب ولم يخصه بالتوراة.

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (آل عمران: 199).

ويقول: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (البقرة: 121)، ويقول: ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ (آل عمران: 113 ـ 114).

الشريعة في أسفار اليهود

وقيامها على التفرقة العنصرية وعدم وحدتها واضطرابها

تضمنت أسفار العهد القديم والتلمود تنظيماً كاملاً لشؤون الدين والدنيا معاً. فلم تغادر أي ناحية من نواحي العبادات وشؤون المعاملات والسياسة والاقتصاد والأسرة والقضاء والتربية والأخلاق والحرب والعلاقات الدولية وواجبات الفرد نحو نفسه وأسرته ووطنه... وما إلى ذلك، لم تغادر أية ناحية من هذه النواحي وغيرها إلا وضعت لها حدوداً وقواعد وبينت ما ينبغي أن تكون عليه، وما يجب اتخاذه في حالة الخروج عليها، حتى شؤون الأكل والشرب، والعلاقات الخاصة بين الرجل وزوجه، والحيض والنفاس والزراعة والحصاد واستخدام الأنعام في الحرث. غير أنه يُلاحظُ في هذه الشريعة كثيرٌ من مظاهر الانحراف والتضارب واختلاط المسائل:

أولاً ـ أما انحرافها فمن أهم مظاهره أنها تقوم على التفرقة العنصرية. وذلك أنها تجعل اليهود الشعب المختار الذي اصطفاه الله وفضّله على العالمين، وتنظر إلى ما عداه من الشعوب نظرتها إلى شعوب وضيعة في سلّم الإنسانية، وتضع قوانينها ونظمها على هذا الأساس، فتفرق بين هؤلاء وأولئك أمام القانون وفي كثير من شؤون الاجتماع. فمن ذلك مثلاً أن الإسرائيليين محرم عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً وأن يُخرج بعضهم بعضاً من

ديارهم؛ على حين أنه مباح للإسرائيليين، بل واجب عليهم، غزو الشعوب الأخرى، وخاصة شعب كنعان، وواجب عليهم بعد انتصارهم على بلد ما أن «يضربوا رقاب جميع رجالها البالغين بحد السيف» فلا يبقوا على أحدٍ منهم، ويسترقّوا جميع نسائها وأطفالها، ويستولوا على جميع ما فيها من مال وعقار ومتاع، أو ينهبوه نهباً حسب تعبير أسفارهم[1].

ـ ومن ذلك أن الإسرائيلي إذا باع نفسه بيعاً اختيارياً لأخيه الإسرائيلي في حالة عوزه وحاجته إلى المال، فإن رقه يكون موقوتاً بأجل يرجع بعده إلى حريته؛ على حين أن الرق المضروب على غير الإسرائيلي يظل أبد الآبدين[2]. ـ ومن ذلك أنه ما كان يجوز للإسرائيلي أن يتعامل بالربا مع أخيه الإسرائيلي ولا أن يأخذ منه رهناً بدينه، وإذا أخذ منه في الصباح رهناً من المتاع الذي لا يستغني عنه في حياته اليومية كالرَّحى وما إليها وجب أن يرده إليه في المساء؛ أما غير الإسرائيلي فمباح للإسرائيلي أن يمتصه ويتعامل معه بأشنع أنواع الربا الفاحش[3].

بل إن أسفارهم تقرر أن شعب كنعان قد كتب عليه في الأزل أن يكون رقيقاً لبني إسرائيل وأنه لا ينبغي أن يكون لأفراد هذا الشعب وظيفة ما في الحياة غير هذه الوظيفة، فإن تمردوا عليها أو طمحوا إلى الحرية وجب على بني إسرائيل أن يردوهم إليها بحد السيف. وتقرر أسفارهم أن هذا الوضع قد فرض عليهم لدعوة دعاها نوح على كنعان ونسله. وذلك أن نوحاً ـ حسب ما يزعمه سفر التكوين ـ قد شرب مرة نبيذ العنب الذي غَرِسَ كرمه بيده بعد الطوفان بدون أن يعلم خاصته المسكرة، ففقد وعيه وانكشفت سوأته، فرآه ابنه حام على هذه الصورة فسخر منه، وحمل الخبر إلى أخويه سام ويافث. ولكن هذين كانا أكثر أدباً منه، فحملا رداء وسارا به مستظهَرِيْنِ أباهما حتى لا يقع نظرهما على عورته، وستَرا به ما انكشف من جسمه. فلما أفاق نوح وبلغه ما كان من

---

(1) فقرتا 13، 14 من إصحاح 20 من سفر التثنية.

(2) فقرات 10، 39 ـ 47، إصحاح 25 من سفر اللاويين؛ فقرة 12 إصحاح 15 من التنية، فقرات 2، 7 ـ 11 إصحاح 21 من الخروج.

(3) فقرة 3 إصحاح 15 وفقرة 20 إصحاح 23 من التثنية.

موقف أولاده حياله، لعن كنعان بن حام ودعا على نسله أن يكونوا عبيداً لعبيد أولاد سام ويافث[1].

ومن مظاهر انحرافها كذلك أن بعض أسفارهم تقر كثيراً من أقبح أنواع الفحشاء. فقد ورد في تلمودهم أن الولد إذا زنا بأمه الأرملة لا يقام عليه الحد ولا يلام، بل ينبغي له أن يستمر معها على هذا الوضع، حتى بعد زواجه، رعاية لما وجب عليه من حق؛ وأن الوالد الذي زنا بابنته بعد وفاة زوجها لا يقام عليه الحد كذلك ولا يعاقب ولا يلام، ولأن لعمله هذا ما يبرره وهو أن يجنبه تبذير ماله مع العاهرات الأجنبيات[2].

ثانياً ـ وأما عدم وحدتها فذلك أن أحكام أسفارها تتضارب بعضها مع بعض في كثير من الشؤون، فقد يقرر سفر في حادث ما حكماً ويجيء سفر آخر فيقرر في الحادث نفسه حكماً آخر. فمن ذلك مثلاً أن سفري الخروج والتثنية يقرران أن الإسرائيلي الذي يبيع نفسه بيعاً اختيارياً لأخيه الإسرائيلي في حالة عوزه وحاجته إلى المال لا يدوم رقه إلا ست سنين[3]، على حين أن سفر اللاويين يقرر أن رقه لا ينتهي إلا بحلول اليوبيل

---

(1) فقرات 20 ـ 29 من إصحاح 9 من سفر التكوين.

لقد وضح من هذه القِصَّةِ الملفقة أن كتبة التوراة أقحموها كي يبرروا غزو أرض فلسطين مرة أخرى بعد أن سمح لهم كورش ملك الفرس بالتسرب مرة أخرى إلى فلسطين ومن التناقض الصارخ أن التوراة نفسها هي وحدها التي تنفرد بذكر ثلاثة أبناء لنوح وليس في القرآن الكريم ما يثبت ذلك ولا الدراسات التاريخية ولا علم الآثار ولا أي علم آخر.

ومن سخافات هذا القول أن نوحاً عليه السلام لعن كنعان بن حام. وكنعان لم يكن موجوداً حتى هذه اللحظة. ثم من قال: إنَّ كنعان هو ابن حام. والكنعانيون عرب وليس لهم علاقة بما يسمى الحاميين.

إن تحبير هذا النص بهذا الشكل يؤكد حقد اليهود على الشعب العربي الكنعاني الذي كان في فلسطين قبل التسرب العبراني إليها. ويريد من هذا النص أن يربط ما هو إلهي بما هو بشري. بمعنى أنه طالما لعن نوح كنعان ونسله وافتراضه أنه سيكون عبداً لإخوتِهِ فإن على اليهود أن يستعبدوا الشعب العربي في فلسطين أو يبيدوه.

ولعل ما يجري الآن من صراع بين العصابات الصهيونية والشعب الفلسطيني ما يدل على مدى ما بَلَغَت العنصرية في نفوس هؤلاء اليهود. خاصة ما يقومون به من مجازر وإبادة بحق الشعب الفلسطيني.

(2) من مقال لعمر مفتي زاده في عدد فبراير 1965 من مجلة الاعتصام.

(3) فقرة 2 من إصحاح 21 من الخروج، وفقرة 2 من إصحاح 15 من التثنية.

الإسرائيلي (وهو العيد الذي يجيء كل خمسين سنة) أياً كانت المدة التي قضاها في الرق قبل ذلك[1]؛ فيمكن بحسب هذا السفر أن يدوم رقه خمسين سنة إلا يوماً أو أياماً إذا استرق عقب العيد الخمسيني مباشرة. ــ ومن ذلك أيضاً أن توراتهم المزعومة تبيح للإسرائيلي، رجلاً كان أو امرأة، أن يبيع نفسه لأخيه الإسرائيلي في الحالة السابقة ذكرها؛ وفي ذلك يقول سفر التثنية: «إذا باعك نفسه أحد من إخوانِكَ، سواء أكان رجلاً أم امرأة، فإنه يخدمك ست سنين...»[2]، على حين أن أسفار التلمود لا تجيز ذلك إلا للرجل وحده[3].

وفي هذين المظهرين اللذين تتسم بهما شريعة اليهود دليل آخر على أن أسفارهم هذه من صنع أيديهم، وعلى أن كل سفر منها يعكس التقاليد والنظم التي كانوا يسيرون عليها في العصر الذي ألف فيه، وعلى مبلغ الخلاف بين توراتهم المزعومة والتوراة الصحيحة التي أنزلها الله على موسى؛ فإن كتاباً من عند الله لا تتضارب أحكامه بعضها مع بعض: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: 82)؛ وأن شريعة من عند الله لا تقر التفرقة العنصرية بين أفراد الآدميين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: 13)، «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر، إلا بالتقوى»[4].

ثالثاً ـ وبجانب هذين المظهرين يلاحظ أن بعض شرائع العهد القديم تحمل في طيها دليلاً على اضطراب الحقائق في أذهان محرريها، واختلاطها بعضها ببعض، ونسيانهم حظاً كبيراً منها، وغفلتهم عن أصولها. فمن ذلك مثلاً ما يذكره سفر التثنية في صدد القسامة إذ يقول: «إذا وجد في بلد من البلاد التي منحكم ربكم السيطرة عليها رجل قتيل ملقاة جثته في وسط حَقْلٍ، ولم يمكن الاهتداء إلى معرفة قاتله، فإن كبراءكم وقضاتكم

---

(1) فقرة 40 من إصحاح 25 من اللاويين.

(2) فقرة 12 من إصحاح 15 من سفر التثنية.

(3) V. Mekhilta sur Exord XXI, 7; Maimoonide I. C. I, 2; Zadok Kahn: l'Eselavage dans la Bible et le Talmud.

(4) حديث شريف من خطبته عليه السلام في حجة الوداع.

يذهبون فيقيسون المسافات بين الجثة والبلاد القريبة منها، وعندما يصلون إلى تعيين أقرب هذه البلاد مسافة إلى هذه الجثة يستدعون كبراءهم ويطلبون إليهم أن يحضروا عجلة (بقرة صغيرة) لم تستخدم بعد في عمل ما ولم تحمل بعد سكة المحراث (أي بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك؛ لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث»، ويذهبوا بها إلى جدول لا تجف مياهه وفي منطقة غير ذات زرع ولا بذور ملقاة في الأرض، وينحروها من قفاها (مؤخرة عنقها) في هذا الجدول.. وحينئذ يتقدم المشرفون على الضحايا من اللاويين (قبيلة اللاويين هم أبناء لاوي أو ليفي أحد أبناء يعقوب كما تقدمت الإشارة إلى ذلك) وهم الذين اختارهم الرب لخدمته ولنشر البركة والرحمة باسمه، وهم وحدهم الذين يحكمون في قضايا الجنايات والجروح، فيطلبون إلى كبراء هذه المدينة أن يغسلوا أيديهم فوق العجلة التي نحرت من قفاها في الجدول ويقسمون أن أيديهم لم ترق دم القتيل وأن أعينهم لم تره وهو يراق (أي يحلفون أنهم ما قتلوه ولا علموا له قاتلاً)... وبذلك لا يحتمل بنو إسرائيل تبعة هذا الدم...»[1].

ويلاحظ أن الشريعة الإسلامية تقرر كذلك أنه إذا وجد قتيل لا يعلم قاتله أجريت القسامة على أهل البلدة التي وجدت في طرقها أو بالقرب منها جثّتُهُ، وأنه إذا وجدت جثته بين بلدين أجريت القسامة على أقربهما مسافة من مكان جثته.

والقسامة في الإسلام أن يستحلف ولي الدم خمسين رجلاً يتخيرهم من أهل البلدة فيحلفون أنهم ما قتلوه ولا علموا له قاتلاً، فحينئذ يسقط القصاص، ولكن تجب الدية على أهل البلدة جميعاً، يدفعونها متضامنين لأسرته[2].

فإذا استعرضنا في ضوء هذه الحقائق، ما ذكره سفر التثنية عن إجراءات القسامة ووازنا بينه وبين ما تقرره الشريعة الإسلامية في هذا الصدد. يظهر لنا ما يلي:

1 ـ يتفق سفر التثنية مع الشريعة الإسلامية في إجراء القسامة على أقرب بلدة إلى جثة القتيل وفي اختيار طائفة من أهل البلد ليحلفوا أنهم ما قتلوه ولا علموا له قاتلاً حتى

---

(1) فقرات 1 ـ 9 من إصحاح 21 من التثنية.

(2) انظر تفاصيل أحكام القسامة في كتب الفقه الإسلامي وفي كتابنا عن المسؤولية والجزاء» الطبعة الثالثة، صفحتي 72، 73 وما ذكرناه هو مذهب أبي حنيفة.

يسقط عنهم القصاص. ـ واتفاق سفر التثنية مع الشريعة الإسلامية في هذه الأمور يجعلنا نرجح أن محرري هذا السفر قد استمدوا هذه الأحكام في جملتها من توراتهم الصحيحة، وأن الله تعالى قد شرع للمسلمين في صددها ما سبق أن شرع مثله أو قريباً منه لليهود، أي أنها من الأمور المشتركة بين الشريعتين والتي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم إذ يقول:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ (الشورى: 13).

2 ـ ولكننا نجد في سفر التثنية بجانب الأمور السابق ذكرها إجراء غريباً قد أقحم أقحاماً على إجراءات القسامة، وهو الخاص بالعجلة التي يحضرها كبراء البلد وينحرونها من قفاها في جدول، ويغسلون أيديهم فوقها مقسمين أنهم لم يقتلوا القتيل ولم يعلموا له قاتلاً. ويزيد من غرابة هذا الإجراء أنه لا يصلح أن يكون حتى مجرد رمز للحقيقة التي يريدها أهل البلد أن يقرروها وهي براءتهم من دم القتيل، لأن غسل أيديهم في جدول ملوث بدماء العجلة التي نحروها بأيديهم وصب الماء فوق هذه العجلة كل ذلك لا يصلح أن يكون رمزاً لبراءتهم من جريمة القتل، بل إنه لخليق أن يكون رمزاً لاقترافهم إياها.

3 ـ وقد ورد لهذه البقرة ذكر في القرآن، ولكن في صورة أخرى وفي حادثة قتل خاصة في عهد موسى لم يعلم فاعلها، وكانت البقرة عنصراً من معجزة أظهرها الله على يديه. وبيان ذلك ما ذكره الله تعالى في سورية البقرة إذ يقول:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (البقرة: 67 ـ 73).

وأشهر تفسير من تفاسير هذه الآيات وأصحها جميعاً أنه قد وقعت في عهد موسى عليه السلام حادثة قتل لم يعلم فاعلها، فطلب بنو إسرائيل إلى موسى أن يدعو ربه أن ينبئهم بمن ارتكب هذا الجرم. فقال لهم موسى إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة. فعجبوا لذلك إذ لم تظهر لهم علاقة بين ذبح البقرة والكشف عن القاتل، وظنوا أن موسى يهزأ بهم. ولكن موسى بين لهم أن هذا ما أمر الله به لإظهار الحق في هذا الحادث. فأخذوا يستفسرون منه عن سن البقرة التي ينبغي أن يذبحوها وعن لونها وعن عملها. فلما شرح لهم ذلك كله بوحي من الله بحثوا حتى وجدوا بقرة تتوافر فيها هذه الصفات جميعاً فذبحوها. وأوحى الله إلى موسى أن يضربوا جثة القتيل بجزء من هذه البقرة، فضربوها به، فأحياه الله وذكر لهم اسم قاتله، ثم مات ثانياً. فكان في ذلك معجزة لموسى من جهة، وبيان حسي من جهة أخرى لقدرة الله تعالى على إحياء الموتى وهو الأمر الذي كان يرتاب فيه بنو إسرائيل. ولذلك يختم الله تعالى هذه القصة بقوله: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وفيه كذلك إشارة إلى أن بعث الله تعالى الحياة في ميت لا يتوقف على سبب من الأسباب التي تدركها عقولهم، وإنما أمر الله إذا أراد ذلك أن يقول له كن فيكون، فيحدث بدون سبب ما أو يجيء عقب أمر لا يتصور العقل أن يكون سبباً له؛ وذلك أن العقل لا يتصور أن ضرب جثة الميت بجزء من جثة ميت آخر يمكن أن يكون سبباً لبعث الحياة فيه.

4 ـ ويلاحظ أن أوصاف البقرة التي ذكرها الله في هذه المعجزة تتفق في جملتها مع أوصاف العجلة التي ذكرها سفر التثنية في إجراءات القسامة؛ وأن ذبح البقرة التي يذكرها القرآن كان في حادث قتل معين لم يعلم مقترفه، وذبح العجلة التي يذكرها سفر التثنية يجب إجراؤه، بحسب نصوصه، كلما وجد قتيل لم يعرف قاتله.

هذا، وقد انتاب القصص في أسفار اليهود تحريف كبير عن الوضع الصحيح الذي ورد في القرآن. ويبدو تحريفها هذا في مواطن كثيرة يرجع أهمها إلى ما يلي:

1 ـ أن الذات العلية تبدو في أسفار توراتهم المزعومة، وبخاصة في القديم منها كسفر التكوين، وفي بعض أسفار التلمود في صورة مجسمة متصفة بكثير من صفات الحوادث، بل بكثير من صفات النقص، وغير مختلفة اختلافاً كبيراً عن الخلق في طبيعتها ومسلكها، على النحو الذي بيناه في الفقرة العاشرة من هذا الفصل.

2 ـ أن بعض من يذكر لنا القرآن أنهم رسل أو أنبياء تذكرهم أسفار اليهود على أنهم مجرد آباء قدامى Patriarches كإبراهيم وإسحق ويعقوب أو على أنهم مجرد ملوك كداود وسليمان، وإن كانت تجيز اتصال الله بهؤلاء وأولئك بطريق مباشر واتصالهم به.

3 ـ أن أسفارهم تنسب ـ لبعض الأنبياء، أو لبعض من تسميهم آباء لبني إسرائيل أو ملوكاً لدولهم ـ، أعمالاً قبيحة تتنافى مع وضعهم الديني والاجتماعي، بل تتعارض مع الخلق الكريم في ذاته، ولا يتصور صدورها إلا من سفلة الناس.

فمن ذلك مثلاً ما تقصه توراتهم المزعومة عن إبراهيم حينما هاجر هو وزوجه سارة إلى مصر على أثر ما أصاب بلاده من جدب ومجاعة[1]، إذ تذكر أن إبراهيم قال لزوجته وهما في طريقهما إلى مصر: إنها امرأة جميلة وإن المصريين لابد أن يفتنوا بها، وإذا علموا أنها متزوجة فسيقتلون زوجها لتخلص لهم بعد ذلك، واتفق معها على أن يتظاهرا بأنها أخته حتى تسلم له حياته، بل يناله حينئذ من المصريين خير كثير. ولما وصلا إلى مصر، ووقع نظر طائفة من كبار رجال الحاشية الملكية على هذه المرأة الجميلة[2] وعلموا من إبراهيم أنها ليست متزوجة وأنها أخته، وأنهوا أوصافها إلى فرعون، استدعاها إلى قصره واتخذها من نسائه، وبالغ في إكرام إبراهيم والحفاوة به والإحسان إليه من أجل ذلك، ووهب له قطعاناً «من الغنم والثيران والحمير» وعدداً من العبيد والإماء. ولكن

---

(1) تكرر التوراة قصة حدوث مجاعة في أرض فلسطين كيف يصح ذلك وإبراهيم يقدم عجلاً سميناً لضيوفه عندما جاؤوا إليه دون أن يعرف أنهم من الملائكة؟.

ألا يدل العجل السمين على وفرة الغذاء والمرعى؟.

(2) فقرات 10 ـ 20 من الإصحاح 12 من سفر التكوين.

أصيب الملك وحاشيته عقب ذلك بوباء مما تصاب الجماعة عادة إذا ارتكبت فيهم فاحشة من هذا القبيل. فاستدعى الملك إبراهيم وأنبه تأنيباً شديداً لكذبه في قرابة سارة منه وما ترتب على كذبه هذا من معاملته لها كإحدى نسائه مع أنها في عصمة رجل آخر، وما أصابه هو وقومه من جراء ذلك من وباء، ثم أصدر أوامره بطرده هو امرأته من بلاده. ـ ولكن تحقق لإبراهيم ما كان يبغيه من عافية ومال: فقد سلمت له حياته؛ وسمح له فرعون بأن يحمل معه جميع ما سبق أن وهبه له من أنعام وعبيد وإماء[1]. ـ وقد كرر إبراهيم فعلته هذه ـ حسب ما يزعمه سفر التكوين ـ حينما هاجر إلى منطقة جيرار، وكاد أبو ملك Abimelec حاكم جيرار يرتكب الإثم مع سارة لولا أن أظهره الله في المنام على حقيقتها وأنها امرأة إبراهيم لا أخته، فأحضره وعاتبه على كذبه، ونفحه كذلك بهبة من النعاج والثيران والعبيد والإماء. ـ فكأنما كان إبراهيم يتاجر بامرأته هذه متنقلاً بها من بلد إلى بلد.

ومن ذلك أيضاً ما تقصه توراتهم المزعومة عن لوط وابنتيه، إذ تذكر أنه لم ينج ـ من أهل قريتي سدوم وعمورة اللتين دمرهما الله لما كان يرتكبه أهلها من إتيان الذكران ـ إلا لوط وابنتاه، وقد أقام ثلاثتهم عقب ذلك في غار في جبل مرتفع، وحينئذ قالت كبراهما لصغراهما: «إن أبانا قد أصبح شيخاً كبيراً وليس في هذا المكان القفر رجال يتصلون بنا على النحو الذي يفعله ذكور الناس مع إناثهم، وإذا بقي الأمر على هذه الحال فسينقرض نسل أبينا بعد وفاته ووفاتنا. وخير وسيلة لاتقاء هذه العاقبة هي أن نسقي أبانا خمراً حتى يفقد وعيه ويتصل بنا فنأتي منه بذرّيّة تخلد نسله» وأنفذتا ما اتفقتا عليه. وقضت معه الكبرى الليلة الأولى والصغرى الليلة التالية، وواقع لوط كلتيهما، وهو في نشوة سكره، فحملتا منه، وجاءت الكبرى بغلام اسمه مؤاب، وجاءت الصغرى بغلام أسمته عمون، ومن هذين الغُلامين تفرع شعبان كبيران هما شعب المؤابيين وشعب العمونيين[2].

بالإضافة لما ذكره المؤلف من تشوبه بني إسرائيل للأنبياء فإننا نضيف هنا مسألة في غاية الأهمية:

---

(1) إصحاح 20 من سفر التكوين.

(2) فقرات 30 ـ 39 من الإصحاح 19 من سفر التكوين.

آ ـ لقد كان لوط عجوزاً وليس في منطق العلم أن يستطيع هـذا العجـوز ممارسـة الجـنس يومين متتالين!.

ب ـ لقد قالت التوراة إنه كان سكران لا يصحو على مـا يفعـل. فكيـف يكـون الإنـسان سكران غائباً عن الوعي ويستطيع ممارسة الجنس؟.

ج ـ نسبت التـوراة الوليـدين باسـمين لهـما مغـزىً ودلالـة عنـصرية: مـؤاب، وعمـون، والمؤابيون والعمونيون هم من العرب فهي تريد أن تقول: إن هذين الشعبين هما نتـاج زنى وحرام، فيجب إبادتهما ولمّـا كـان المؤابيـون والعمونيـون عـدوّين لـدوديْن لبنـي إسرائيل فقد رأى كتَبَةُ التوراة أن ينسبوهما إلى أولاد حرام يجب إبادتهما.

د ـ إن القصة كلّها ملفقة ولم يتحدث عنها سوى التوراة ولم يذكر القـرآن ذلـك، بـل ذكـر نجاة لوطٍ مع من آمن معه، ورفض من الأساسِ الفاحشة التي كان يقوم بها قومُـهُ ولم يثبت في أي علم تاريخي أو آثاري أو أي علم آخر ما ذكرته التوراة وانفردت بالحديث عنه.

ومن ذلك أيضاً ما يقصه السفر الثاني من سفري صموئيل عن داود عليه السلام إذ أن داود كان يمشي في صباح يوم على سطح قصره الملكي، فوقع بصره في المنزل المجاور له على امرأة مفرطة الجمال وهي تستحم متجردة من جميع ثيابهـا، فـشغف بهـا حبـاً، وسـأل عنها، فأخبر أنها زوجة أوريا الحثي Urie Héthien أحد الجنـود المرسـلين في حملـة حربيـة تحت قيادة يؤاب Joab فبعث داود في طلبها، فجيء بها إليـه. وبعـد أن قـضى منهـا وطـره عادت إلى منزلها وقد حملت منه، فعملت على أن يقف داود على خبر حملها منه. فاسـتدعى داود زوجها من الجيش وأخذ يسأله عن حالة الحملة وقائـدها وأعمالهـا، ونفحـه بـبعض الهدايا وطلب إليه أن يذهب إلى منزله ليستريح هـذه الليلـة. وكـان داود يرمـي مـن وراء ذلك أن يقرب الرجل زوجته، فينسب الحمـل إليـه، ولا تعلـق بـداود يـة شـبهة. ولكـن الرجل أبت عليه شهامته ووطنيته أن ينعم بالراحة واللذة في بيته بينما جيش بلاده مشتبك في معركة مع الأعداء. فلم يذهب إلى بيته وإنما قضى ليلته نائماً مع خدم القصر الملكي. ولما علم داود بذلك استدعاه مرة ثانية وسأله عن سبب إحجامه عن الـذهاب لبيتـه، فأجابـه بأن نفسَهُ لم تطاوعه بأن ينام في بيته وجيشه يحارب خارج بلاده. فطلب إليه أن يبقى يومـاً

آخر، ودعاه إلى الطعام والشراب، وحرص على أن يسكره حتى يفقد وعيه ويذهب إلى زوجه. ولكن أوريا لم يفقد رشده. فقضى ليلته هذه كما قضى ليلته السابقة نائماً مع خدم القصر الملكي. ولما ضاق داود به ذرعاً، ولم تفلح معه حيلته، أمر برجوعه إلى الجبهة، وأرسل إلى يؤاب قائد جيشه أن يضع أوريا في أخطر منطقة في ميدان القتال وأن يتخلى عنه حتى يقتل. فصدع يؤاب بالأمر، وقتل أوريا في الميدان. وحينئذ أتيح لداود أن يضم زوجته إلى نسائه بعد أن انقضى حدادها على زوجها، ووضعت حملها وهي في عصمة داود، خفي بذلك على جميع الناس ما ارتكبه داود من جرائم خسيسة، إذ زنى بامرأة متزوجة وعمل على قتل زوجها الشجاع وهو يذود عن حياض بلاده، مع أنه كانت له زوجات وجوار كثيرة. فأرسل الله إليه ناثان Nathan وقص عليه قصة رجلين يملك أحدهما قطعاناً كبيرة العدد من الأبقار والنعاج، بينما لا يملك الآخر إلا نعجة واحدة. وفي أحد الأيام قدم ضيف على الغني، فمد يده إلى نعجة الفقير واغتصبها منه وذبحها لضيفه. فغضب داود من فعلة هذا الغني؛ وقال لناثان إن هذا الرجل يستحق الموت. فقال له ناثان إنك أنت نفسك هذا الرجل. وأخذ يؤنبه ويتوعده بما سيحيق به وبأهله من عذاب ونكال. فاعترف داود بذنبه، واستغفر ربه، وتاب إليه، فغفر له.. إلى آخر ما ورد في هذا السفر[1].

والقصة على هذا الوضع محض افتراء ولا يتصور صدور وقائعها من رجل عادي ذي خلق، فضلاً عن نبي كريم.

ومن ثم أخطأ بعض المفسرين خطأ كثيراً، إذ فسروا ما جاء في القرآن الكريم في سورة ص[2] عن داود والخصمين اللذين اختصما إليه على النحو الذي ورد في سفر صموئيل، مع أن العبارات التي ذكرت بها القصة في القرآن الكريم لا تدل صراحة على شيء من ذلك. ولذلك كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: «من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة»، يقصد بذلك أن من يتحدث هذا الحديث فإنه يرتكب جريمة القذف. وحد القذف العادي في الإسلام ثمانون

(1) الإصحاحان 11، 12 من السفر الثاني من سفري صموئيل.

(2) آية 13 من سورة الحجرات.

جلدة، ولكن إذا تناول القذف نبياً كريماً كان مرتكبه خليقاً بأن يضاعف له هذا الحد ضعفين.

بل لقد أورد سفر الخروج، وهو أحد أسفار توراتهم المزعومة، قصة عبادة بني إسرائيل للعجل الذهبي في صورة غريبة تدل على أن محرري هذه الأسفار لا يرعون لأنبيائهم حرمة، ولا يرجون لهم وقاراً، ولا يتورعون عن أن ينسبوا إليهم أية نقيصة، حتى خيانة الرسالة نفسها التي بعثوا من أجلها، ودفع قومهم إلى الشرك بالله. فقد نسب هذا السفر لهارون نفسه عليه السلام أنه يسر لبني إسرائيل سبيل الشرك، ودفعهم إلى الوثنية وعبادة الحيوان والأصنام، فصنع لهم بيديه في سيناء عجلاً من ذهب ليعبدوه من دون الله. فذكر في إصحاحه الثاني والثلاثين أن موسى لما غادر قومه لتلقي الألواح من ربه، وطال أمد غيابه عنهم، طلبوا إلى هارون أن يصنع لهم إلهاً تدركه أبصارهم، لأنهم لا يعلمون ما انتهى إليه أمر موسى، ولا يدركون الإله الذي يحدثهم عنه. فطلب إليهم هارون أن يحضروا له جميع أقراط الذهب المدلاة من آذان نسائهم وبناتهم وبنيهم، فجمعوا هذا الحلي، فصهرها بنفسه،وصنع منها عجلاً ذهباً ليتخذوه إلهاً، فخر بنو إسرائيل سجداً له، وقدموا له القرابين، وقالوا هذا إله إسرائيل الذي أخرجهم من مصر وأنقذهم من شقائها[1].

وقد أشار القرآن الكريم إلى قصة هذا العجل إشارة مجملة في عدة آيات منها قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ (البقرة: 92 ـ 93).

وذكر القرآن تفاصيل هذه القصة في سورتي الأعراف وطه مبيناً كذب ما نسبه محررو سفر الخروج إلى هارون فقرَّرَ أن الذي قام بصنع هذا العجل وأغراهم بعبادته

(1) إصحاح 32 من سفر الخروج.

وفتنهم عن دينهم في أثناء غياب موسى لتلقي الألواح رجل سامري[1]، أي منسوب إلى طائفة يقال لها السامرة، وهي جماعة من غير بني إسرائيل اعتنقت اليهوديَّة وامتزجت بالإسرائيليين، وكان الإسرائيليون ينظرون إلى أفرادها على أنهم أحط منهم كثيراً قدراً ومنزلة، أو يرجع أصله إلى إقليم السامرة، وهو أحد أقاليم فلسطين، وأن هارون لم يأل جهداً في نهيهم عن ضلالهم والعمل على رجعهم إلى دينهم الحق، ولكنهم لم يستمعوا إليه، وأن كل ما أخذه موسى على هارون أنه لم يتركهم ويلحق به ليبلغه ما انتهوا إليه، أو لم يقاتلهم بمن عسى أن يكون معه، وأن هارون قد برر موقفه بأنه خشي إذا فعل ذلك أن يفرق بين بني إسرائيل ويضرب بعضهم ببعض، وذلك إذ يقول في سورة طه: ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ (أي من الحلي التي أشار إليها في الآية السابقة، وهي الحلي التي أهداها إليهم المصريون قبل خروجهم والتي اختلسوها منهم، وقد صهرها السامري على صورة عجل بداخل فمه تجاويف إذا مر فيها الهواء أحدث صوتاً كصوت الخوار) ﴿ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ (أي أن تتركهم وتلحق بي لتنهي إلى أمرهم، أو أن تقاتلهم بمن عسى أن يكون معك) أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾ (طه: 88 ـ 94). وإذ يقول في سورة الأعراف: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِمْ مِّنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟

---

(1) الواقع أن اسمه السامري وليس معنى ذلك أنه ينسب إلى طائفة السامريين لأن هذه الطائفة لم تكن قد ظهرت بَعْدُ، وقدْ ظهرت هذه الفرقة بعد موسى بمئات السنين.

﴿يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ (الأعراف: 148 ـ 152)

وأما قصة طلبهم من نبيهم أن يجعل لهم إلهاً يحسونه، والتي ذكرها سفر الخروج في حادث العجل زاعماً أنهم قد طلبوا ذلك إلى هارون، وأن هارون قد أذعن لرغبتهم الآثمة، فقد ذكرها القرآن الكريم على وجهها الصحيح، فقرر أن الطلب كان موجهاً إلى موسى نفسه لا إلى هارون، وأن موسى قد نهرهم وبين لهم ضلالهم وسخافة تفكيرهم وسوء فهمهم لذات الإله، وذلك إذ يقول:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ (الأعراف: 138 ـ 140).

من الشناعات التي ترويها كتبهم المقدسة المزعومة ما تذكره عن سليمان وأنه في أواخر ملكه قد ترك عبادة الله وانحرف إلى عبادة الأوثان وبنى لها معبداً فسقط في نظر الله[1]. ويرد القرآن الكريم على هذا الإفك إذ يقول: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ (البقرة: 102).

4 ـ أن التحريف قد يتناول قصة ما لتبرير وضع اجتماعي أو سياسي ظالم سار عليه بنو إسرائيل في مرحلة ما من مراحل تاريخهم.

فمن ذلك قصة نوح مع ابنه التي حدثنا عنها القرآن إذ يقول: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (هود: 42 ـ 43)، قد حرفها سفر التكوين تحريفاً كبيراً إذ يذكر أن حام بن نوح قد رأى أباه وهو سكران مكشوف العورة، فسخر منه، فلما أفاق نوح من سكره، وعلم ما كان من ابنه حام، دعا على ذريته، وهم الكنعانيون، بأن يكونوا عبيداً

(1) إصحاح 11، من السفر الأول من سفري الملوك.

لعبيد أبناء ولديه الآخر سام ويافث[1]. ويقصد الذين حرفوا هذه القصة إلى هذا الوضع الغريب، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق[2]، أن يبرروا الأوضاع الشاذة الظالمة التي كان يسير عليها بنو إسرائيل حيال الكنعانيين إذ يقتلون رجالهم ويسبون نساءهم وأطفالهم ويتخذون منهم عبيداً وإماءً، زاعمين أنهم بذلك يحققون دعوة نوحٍ عليهم ويرجعون إلى الوضع الذي كتب عليهم في الأزل أن يكونوا عليه.

5 ـ وفي كثير من قصصهم الواردة في عهدهم القديم بوجه عام، وفي توراتهم المزعومة بوجه خاص، من المتناقضات والمفارقات والغفلة عن حقائق سبق إيرادها والخطأ في جمع الأرقام وفي الحساب... ما يجل عن الحصر وما يضيف إلى الأدلة السابقة أدلة جديدة قاطعة بأن أسفارهم هذه من صنع أيديهم. وسنقتصر فيما يلي على إيراد بضعة أمثلة تنطوي على نماذج مختلفات من الكذب والتناقض في أقاصيص أسفارهم[3].

فن ذلك أن سفر التكوين يذكر في الفقرة الثانية من إصحاحه الرابع أن هابيل ابن آدم كان راعي غنم، ثم يذكر بعد ذلك في الفقرتين التاسعة عشرة والعشرين من الإصحاح نفسه أن يابال Jabal وهو في العقب السابع بعد هابيل (فهو يابال بن لامك بن متوشائيل بن محويائيل بن عيراد بن حنوك بن قابيل بن آدم) Jaba, Lemec, Metuchaêl, Mehujael, Irad, Henoc, Cain, Adam .

كان أول من رعى الغنم وسكن الخيام.

ومن ذلك أن سفر التكوين قد ذكر في الفقرة الثالثة من إصحاحه السادس أن الله تعالى في عصر نوح قد غضب على النوع الإنساني فجعل أعمار أفراده لا تتجاوز 120 مائة وعشرين سنة. ثم ذكر بعد ذلك في الإصحاح الحادي عشر من السفر نفسه أن سام بن

---

(1) فقرات 2 ـ 29، إصحاح 9 من سفر التكوين. وقد ذكرنا هذه القصة بتفصيل في فقرة 11 من هذا الفصل لبيان أن شريعتهم تقوم على التفرقة العنصرية.

(2) التعليق السابق نفسه.

(3) أفرد العلامة ابن حزم في الجزء الأول من كتابه القيم الفصل في الملل والأهواء والنحل فصلاً خاصاً شغل حيزاً كبيراً (من صفحة 93 إلى صفحة 166 من أكبر قطع) لضرب أمثلة لهذه الأمور، وجعل عنوانه: «فصل في مناقضات ظاهرة وأكاذيب واضحة في الكتاب الذي يسميه اليهود التوراة وفي سائر كتبهم يتعين بذلك تحريفها وأنها غير الذي أنزله الله عز وجل».

وحملت امرأته، وتزاحم في بطنها ولدان، فمضت لتلتمس علماً من الله عز وجل عما في بطنها، فقال لها الله في بطنك أمتان تتفرعان عن توأمين أحدهما أكبر من الآخر (أي يولد قبل الآخر) وسيصبح كبيرهما مسخراً لصغيرهما.

فلما كملت أيام حملها خرج من بطنها توأم: خرج أولهما (وهو الأكبر) أحمر مكسو بفروة شعر، ولذلك سموه عيسو Esai، ثم خرج أخوه (وهو الأصغر) ويده ممسكة بعقب عيسو، ولذلك سُمي يعقوب، ـ ثم جاء بعد ذلك في الإصحاحين الثاني والثلاثين والثالث والثلاثين من السفر نفسه أن يعقوب (وهو الأصغر) هو الذي كان خاضعاً لعيسو (الأكبر) وأنه سجد على الأرض سبع مرات إجلالاً لعيسو، ولم يخاطبه إلا بالعبودية والتذلل المفرط، وأن جميع أولاد يعقوب (ما عدا بنيامين الذي لم يكن قد ولد بعد) قد سجدوا لعمهم عيسو، وأن يعقوب أهدى لعيسو تقرباً إليه والتماساً لرضاه خمسمائة وثمانين رأساً من ضأن ومعز وبقر وإبل وحمير، وأن يعقوب رآها منه عظيمة إذ قبلها منه، وأن بني عيسو لم يخضعوا قط لبني يعقوب بل إن بني يعقوب هم الذين خضعوا لبني عيسو في أثناء مرحلة كبيرة من مراحل تاريخهم.

ومن ذلك أيضاً أن سفر التكوين قد ذكر في إصحاحه السابع والعشرين أن إسحاق (وكان قد كف بصره) قال لابنه عيسو يا بني قد شخت ولا أعلم يوم موتي، فاخرج وصد لي صيداً، واصنع لي منه طعاماً كما أحب، وائتني به لآكله كي أباركك قبل أن أموت، وأن رفقة امرأة إسحاق وأم عيسو ويعقوب قد أرادت أن يختص ابنها يعقوب بهذه البركة، فدبرت حيلة لتحقيق غرضها، فأمرت يعقوب أن يأخذ جديين وتصنع هي منهما طعاماً لإسحاق، ويأتي بهما يعقوب إلى إسحاق أبيه فيقدمها إليه ليباركه، وأن يعقوب قال لأمه إنني أخشى أن يكشف أبي هذه الخديعة حينما يتحسس جسمي فيجدني أجرد، مع أن جسم أخي عيسو مكسو بفروة شعر، فأجلب على نفسي لعنة لا بركة، فقالت له سأدبر حيلة لذلك، فأخذت ثياب عيسو ابنها الأكبر وألبستها يعقوب، ووضعت جلدي الجديين على يديه وعلى حلقه، حتى إذا تحسس إسحاق جسمه ظن أنَّه جسم عيسو. وأعطت يعقوب الطعام فجاء به إلى أبيه، وقال يا أبي، فقال له إسحاق من أنت يا ولدي؟ قال يعقوب أنا ابنك عيسو بكرك (أي أكبر ولديك) صنعت جميع ما قلت لي، فاجلس

نوح عاش 600 سنة، وأرفكشاد بن سام 438 سنة، وشالح بن أرفكشاد 433 ستة، وعابر بن شالح 464 سنة، وفالج بن عابر 239 سنة، ورعو بن فالج 239 سنة، وسروج بن رعو 230 سنة، وناحور بن سروج 148 سنة، وتارح بن ناحور 250 سنة.

ومن ذلك أيضاً أن سفر التكوين قد ذكر في الفقرة الثانية والثلاثين من الإصحاح الخامس أن نوحاً حينما بلغ خمسمائة سنة ولد له سام. وذكر في الفقرة السادسة من الإصحاح السابع أن الطوفان قد حدث حينما بلغ سام سن المائة. ثم ذكر بعد ذلك في الفقرة العاشرة من الإصحاح الحادي عشر من السفر نفسه أن سام حينما بلغ مائة سنة ولد له أرفخشاد وأن ذلك كان بعد سنتين من الطوفان. أي أن الطوفان قد حدث وسن سام ثمان وتسعون سنة لا مائة سنة كما ذكر من قبل.

ومن ذلك أيضاً أن سفر التكوين قد ذكر في الفقرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة من الإصحاح التاسع عشر أن الملكين اللذين أرسلا لتدمير قريتي سدوم وعمورة قالا للوط أخرج بنيك وبناتك (المتزوجات وغير المتزوجات، وكان منهم اثنتان غير متزوجتين) وأصهارك (أزواج بناته) وكل من لك في المدينة لأننا سندمرها. ثم ذكر في الفقرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة من الإصحاح نفسه أنه لما طلع الفجر كان الملكان يستعجلان لوطاً قائلين له قم خذ امرأتك وبنتيك (غير المتزوجتين) واخرج بهن لأننا سندمر المدينة. ولما توانى أمسك الملكان بيد امرأته وبنتيه (غير المتزوجتين) وأخرجاهنّ. ويتبين من ذلك أن الملكين قد تناقضا في أمرهما المكلفين به من قبل الله تعالى. فقد طلبا أولاً إلى لوط أن يخرج بنيه وأصهاره وجميع بناته المتزوجات منهم وغير المتزوجات وجميع أهله، ولكنهما في المرة الثانية لم يطلبا إليه أن يخرج إلا امرأته وبنتيه غير المتزوجتين. ويظهر من ذلك أيضاً أن بنيه وبناته المتزوجات وأزواجهن قد هلكوا مع من هلك في المدينة. وهذا يتناقض مع ما ذكره الملكان من قبل من أنهما مكلفان بالإبقاء على هؤلاء.

ومن ذلك أن سفر التكوين قد ذكر في فقراته المحصورة بين التاسعة عشرة والسابعة والعشرين (20 ـ 26) من إصحاحه الخامس والعشرين أن رفقة Rebecca زوجة إسحاق كانت عاقراً، فدعا إسحاق ربه أن يهبه منها أولاداً، فاستجاب له ربه،

5 ـ فيظهر أن الأمر قد اختلط على محرري سفر التثنية فخلطوا بين ما جاء في التوراة الصحيحة أو في أثر آخر من آثارهم خاصٍ بالمعجزة التي حدثت على يد موسى، وما جاء فيها خاصاً بإجراءات القسامة العادية، وجعلوا ذبح العجلة جزءاً من هذه الإجراءات، مع أنه غريب عنها كل الغرابة، ولا يصلح أن يكون حتى مجرد رمز للحقيقة التي يراد تقريرها؛ بل إنه لخليق أن يكون رمزاً لنقيضها كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق[1].

وصدق الله العظيم إذ يقول في صدد اليهود ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا ﴾ (الحجرات: 13).

---

(1) فطن من قبلنا المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء» إلى وجود الشبه بين قصة البقرة وأحكام القسامة في سفر التثنية، ولكنه حاول التوفيق بينهما في صورة غريبة، فجعل الآيات الواردة في القرآن مشتملة على قصتين: قصة ذبح البقرة في حالة وجود قتيل في بلد غير إسرائيلي، وجعلها إشارة إلى أحكام القسامة في سفر التثنية؛ والأخرى قصة قتيل في بلد إسرائيلي اتهم فيه القوم بعضهم بعضاً، فأمرهم الله أن يضربوا المتهم بعضو من أعضاء القتيل («اضربوه ببعضها» أي ببعض الجثة). ـ وهذا تفسير غريب لا يتفق مع سياق القرآن ولا مع ما فهمه الصحابة من الآيات ولا مع ما قاله المفسرون في صددها ـ هذا إلى أنه يحاول أن يطوع آيات القرآن حتى يجعلها متفقة مع ما جاء في سفر التثنية ناظراً إلى ما جاء في هذا السفر على أنه صحيح وأنه الأصل في الموضوع، مع أنه ظاهر فيه الخلط والتخبط والاضطراب.

ولعل هذا وأشباهه من الأمور الواردة في هذا الكتاب هي التي دعت اللجنة التي ألفها المرحوم الشيخ عبد المجيد اللبان عميد كلية أصول الدين الأسبق لفحص هذا الكتاب بعد أن وصلت إليه شكاوي كثيرة واعتراضات في صدد ما ورد فيه إلى أن تذكر في تقريرها: «إنها لا ترى تداوله بين طلاب المعاهد الدينية وغيرهم لأسباب أهمها أن مؤلفه تعسف في التأويل وخرَّج الآيات القرآنية تخريجاً بعيداً، إن لم يكن باطلاً، فخالف بذلك إجماع المفسرين، ولم يكلف نفسه استقصاء البحث حتى يكون حكمه صحيحاً. وهو مع ذلك يتصرف فيما ينقل من أقوال، وينكر بعض الأحاديث الصحيحة ليحكم عقله، ويجعل التوراة والإنجيل مهيمنيْن على القرآن».

هذا وقد ورد كذلك في سفر العدد (فقرات 1 ـ 11 من إصحاح 19 من سفر العدد) ذكر لبقرة صهباء صحيحة لاشية فيها لم يعل عليها نير ووجوب ذبحها وحرقها ووضع رمادها في ماء ليكون ماء استغفار ـ ولكن لا علاقة بين هذه البقرة وشؤون القسامة.

وحملت امرأته، وتزاحم في بطنها ولدان، فمضت لتلتمس علماً من الله عز و
بطنها، فقال لها الله في بطنك أمتان تتفرعان عن توأمين أحدهما أكبر من الآخر (اي
قبل الآخر) وسيصبح كبيرهما مسخراً لصغيرهما.

فلما كملت أيام حملها خرج من بطنها توأم: خرج أولهما (وهو الأكبر) أحمر مكسو بفروة شعر، ولذلك سموه عيسو Esai، ثم خرج أخوه (وهو الأصغر) ويده ممسكة بعقب عيسو، ولذلك سُمي يعقوب، ـ ثم جاء بعد ذلك في الإصحاحين الثاني والثلاثين والثالث والثلاثين من السفر نفسه أن يعقوب (وهو الأصغر) هو الذي كان خاضعاً لعيسو (الأكبر) وأنه سجد على الأرض سبع مرات إجلالاً لعيسو، ولم يخاطبه إلا بالعبودية والتذلل المفرط، وأن جميع أولاد يعقوب (ما عدا بنيامين الذي لم يكن قد ولد بعد) قد سجدوا لعمهم عيسو، وأن يعقوب أهدى لعيسو تقرباً إليه والتماساً لرضاه خمسمائة وثمانين رأساً من ضأن ومعز وبقر وإبل وحمير، وأن يعقوب رآها منه عظيمة إذ قبلها منه، وأن بني عيسو لم يخضعوا قط لبني يعقوب بل إن بني يعقوب هم الذين خضعوا لبني عيسو في أثناء مرحلة كبيرة من مراحل تاريخهم.

ومن ذلك أيضاً أن سفر التكوين قد ذكر في إصحاحه السابع والعشرين أن إسحاق (وكان قد كف بصره) قال لابنه عيسو يا بني قد شخت ولا أعلم يوم موتي، فاخرج وصد لي صيداً، واصنع لي منه طعاماً كما أحب، وائتني به لآكله كي أباركك قبل أن أموت، وأن رفقة امرأة إسحاق وأم عيسو ويعقوب قد أرادت أن يختص ابنها يعقوب بهذه البركة، فدبرت حيلة لتحقيق غرضها، فأمرت يعقوب أن يأخذ جديين وتصنع هي منهما طعاماً لإسحاق، ويأتي بهما يعقوب إلى إسحاق أبيه فيقدمها إليه ليباركه، وأن يعقوب قال لأمه إنني أخشى أن يكشف أبي هذه الخديعة حينما يتحسس جسمي فيجدني أجرد، مع أن جسم أخي عيسو مكسو بفروة شعر، فأجلب على نفسي لعنة لا بركة، فقالت له سأدبر حيلة لذلك، فأخذت ثياب عيسو ابنها الأكبر وألبستها يعقوب، ووضعت جلدي الجديين على يديه وعلى حلقه، حتى إذا تحسس إسحاق جسمه ظن أنه جسم عيسو. وأعطت يعقوب الطعام فجاء به إلى أبيه، وقال يا أبي، فقال له إسحاق من أنت يا ولدي؟ قال يعقوب أنا ابنك عيسو بكرك (أي أكبر ولديك) صنعت جميع ما قلت لي، فاجلس

وكل من صيدي وبارك علي! فقال إسحاق تقدم لأتحسس جسمك ولأتبين هل أنت عيسو أم لا. فتقدم يعقوب فجسه إسحاق، وقال الصوت صوت يعقوب واليدان يدا عيسو. وقال هل أنت ابني عيسو؟ فقال نعم أنا ابنك عيسو. فبارك عليه وقال له في بركته: تخدمك الأمم، وتخضع لك الشعوب، وتكون مولى إخوتك، ويسجد لك بنو أمك.

وحدث بعد ذلك أن عيسو أتى بالطعام إلى إسحاق، فعرف إسحاق الخديعة التي عملها ابنه يعقوب، ولكن اعتذر لعيسو، وقال له قد خدعني أخوك يعقوب واختص ببركتي، وصيرته سيداً لك، وجعلت جميع إخوته عبيداً له ولأولاده، فماذا عسى أن أعمله لك بعد ذلك؟! فقال عيسو لأبيه ألك بركة واحدة يا أبي، باركني أنا أيضاً. ورفع عيسو صوته وبكى. فباركه إسحاق قائلاً: سيكون مسكنك في بلد مجرد من دسم الأرض وغيث السماء، وستعيش مما يفيئه عليك سيفك تُستعبد لإخوتك، ولكنك ستجمح وتكسر نير الاستعباد عن عنقك.

وقد بين العلامة ابن حزم، في نقد لاذع وتحليل رائع، ما في هذا النص من أكاذيب وخرافات ومتناقضات إذ يقول[1]:

«وفي هذا الفصل فضائح وأكذوبات وأشياء تشبه الخرافات».

«فأول ذلك إطلاقهم على نبي الله يعقوب عليه السلام أنه خدع أباه وغشه. وهذا مبعد عمن فيه خير من أبناء الناس مع الكفار والأعداء. فكيف من نبي مع أبيه وهو نبي أيضاً؟ هذه سوءات مضاعفات».

«وثانية، وهي إخبارهم أن بركة يعقوب إنما كانت مسروقة بغش وخديعة وتخابث. وحاش للأنبياء عليهم السلام من هذا. ولعمري إنها لطريقة اليهود، فما تلقى منهم إلا الخبيث الخادع وإلا الشاذ».

«وثالثة، وهي إخبارهم أن الله تعالى أجرى حكمه وأعطى نعمته عن طريق الغش والخديعة، وحاش لله من هذا».

---

(1) انظر الجزء الأول من «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم صفحة 108 وتوابعها. وانظر كذلك أمثلة كثيرة من هذا القبيل في كتاب «إظهار الحق» لرحمة الله الهندي، فقد وقف على ذلك نحو 35 صفحة (56 ـ 76، 123 ـ 128) طبعة مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء).

«ورابعة، وهي أنه لا يشك أحد في أن إسحاق عليه السلام إذ بارك يعقوب حينما خدعه، كما زعم النذل الذي كتب لهم هذا الهوس، إنما قصد بتلك البركة عيسو، وأنه دعا لعيسو لا ليعقوب. فأي منفعة للخديعة هاهنا، لو كان لهم عقل. وما أشبه هذه القضية بحمق الغالية من الرافضة القائلين إن الله تعالى بعث جبريل إلى علي، فأخطأ وأتى إلى محمد. (فأصبح محمداً نبياً مع أن علياً كان هو المقصود عند الله). وهكذا بارك إسحاق على عيسو فأخطأت البركة ومضت إلى يعقوب. فعلى كلتا الطائفتين لعنة الله».

«فهذه وجوه الخبث والغش في هذه القضية».

«وأما وجوه الكذب فكثيرة جداً. من ذلك نسبتهم الكذب إلى يعقوب عليه السلام، وهو نبي الله تعالى ورسوله، في أربعة مواضع»:

«أولها وثانيها قوله لأبيه إسحاق أنا ابنك عيسو وبكرك. فهاتان كذبتان في نسق، لأنه لم يكن ابنه عيسو ولا كان بكره».

«وثالثها ورابعها قوله لأبيه صنعت جميع ما قلت لي فاجلس وكل من صيدي فهاتان كذبتان في نسق، لأنه لم يكن قال له شيئاً ولا أطعمه من صيده».

«وكذبات أخرى: هي بطلان بركة إسحاق إذ قال ليعقوب تخدمك الأمة وتخضع لك الشعوب وتكون مولى إخوتك، ويسجد لك بنو أمك. وبطلان قوله لعيسو تُستعبد لأخيك».

«فهذه كذبات متواليات. فوالله ما خدمت الأمم يعقوب ولا بنيه بعده، ولا خضعت لهم شعوب، ولا كانوا موالي إخوتهم، ولا سجد لهم ولا له بنو أمه. بل إن بني إسرائيل هم الذين خدموا الأمم في كل بلدة وخضعوا للشعوب قديماً وحديثاً في أيام دولتهم وبعدها. فإن قالوا سيكون. قلنا لهم:

قد حصلتم على الصغار يقينا والأماني بضائع السخفاء

لاسيما مع تقصي جميع الآماد التي كانوا ينبئون بأنها لا تنقضي حتى يرجع أمرهم».

«واعلموا أن كل أمة أدبرت فإنهم ينتظرون العودة ويمنون أنفسهم بالمراجعة بمثل ما تمنى به إسرائيل نفسه، ويذكرون في ذلك مواعيد كمواعيدهم. فأمل كأمل ولا فرق. كانتظار مجوس الفرس بهرام هماوند راكب البقرة، وانتظار الروافض للمهدي...

تمـــن يلـــذ المـــستهام بمثلـــه وإن كـــان لا يغنـــي فتـــيلا ولا يجـــدي
وغـــيظ عـــلى الأيـــام كالنـــار في الحـــشا ولكنـــه غـــيظ الأســـير عـــلى القـــدِّ»

«وأما قوله تكون مولى إخوتك ويسجد لك بنو أمك، فلعمري لقد صح ضد ذلك جهاراً، إذ في توراتهم أن يعقوب كان راعياً لأنعام ابن عمه لابان بن ناحور بن لامك وخادمه عشرين سنة، وأنه بعد ذلك سجد هو وجميع ولده ـ حاشا من لم يكن خلق منهم بعد ـ لأخيه عيسو مراراً كثيرة».

«وما سجد عيسو قطّ ليعقوب، ولا ملك قط أحد من بني يعقوب بني عيسو. وقد تعبد يعقوب لعيسو في جميع خطابه له، وما تعبد قط عيسو ليعقوب.

وقد سأل عيسو يعقوب عن أولاده فقال له يعقوب هم أصاغر منَّ الله بهم على عبدك. وقد طلب يعقوب رضاء عيسو وقال له: إني نظرت إلى وجهك كمن نظر إلى بهجة الله، فارض عني، واقبل ما أهديت إليك. فما نرى عيسو وبنيه إلا موالي يعقوب وبنيه».

ومن عجب أنه مع هذا الخلاف الجوهري الكبير بين قصص القرآن وقصص أسفارهم وتوراتهم المزعومة، وبين نور الحق فيما جاء به الكتاب الكريم وظلمات الباطل والزيف والتحريف فيما جاءت به أسفارهم، لا ينفك كثير من المستشرقين ومن يدور في فلكهم يزعمون أن محمداً قد نقل قصصه من قصص اليهود:

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (الكهف: 5).

وصدق الله العظيم إذ يقول لرسوله:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: 120)، وإذ يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: 111).

فرق اليهود

نظرة مجملة في فرق اليهود

انقسم اليهود في مختلف مراحل تاريخهم إلى فرق دينية[1] تدّعي كل فرقة منها أنها أمثل طريقة وأشد تمسكاً بأصول الدين اليهودي وروحه من الفرق الأخرى.

وأهم موضوع يدور حوله اختلاف هذه الفرق هو الاعتراف بأسفار العهد القديم والأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى Traditions orales وأسفار التلمود أو إنكار بعض هذه الأصول ورفض الأخذ بما جاء فيها من أحكام وتعاليم. وقد انقرض معظم فرقهم ولم يبق منها في الوقت الحاضر إلا القليل. وترجع أهم فرقهم الباقية والمنقرضة إلى خمس فرق، وهي فرقة الفريسيين، وفرقة الصدوقيين، وفرقة السامريين، وفرقة الحسيديّين، وفرقة القرائين.

وسنعقد فيما يلي لكل فرقة من هذه الفرق فقرة على حدة.

فرقة الفريسيين Pharisien:

وهي أهم فرق اليهود وأكثرها عدداً في ماضي تاريخهم وحاضره. وترجع أهم مميزات هذه الفرقة من ناحية العقيدة إلى الأمرين الآتيين:

1 ـ أنها تعترف بجميع أسفار العهد القديم والأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى وأسفار التلمود. بل إن فقهاءهم (وهم الذين يطلق عليهم اسم الربانيين) هم الذين ألّفوا أسفار التلمود كما سبق بيان ذلك[2].

2 ـ أنها تؤمن بالبعث، وتَعتَقِد أن الصالحين من الأموات سينتشرون في هذه الأرض ليشتركوا في ملك المسيح المنتظر الذي يزعمون أنه سيأتي لينقذ الناس ويدخلهم في ديانة موسى[3].

---

(1) انقسم اليهود كذلك من الناحية السياسية إلى عدة فرق ودويلات، ومن الناحية القبلية إلى عدة قبائل وعشائر وبطون، ولكننا سنقصر حديثنا في هذه الفقرة على فرقهم الدينية، لأنها هي وحدها التي تتصل بموضوع كتابنا.

(2) انظر أول فقرة 8 من هذا الفصل.

(3) انظر الصفحتين الأخيرتين من فقرة 10 من هذا الفصل.

وتذكر أناجيل المسيحيين أن الفريسيين كانوا من ألد أعداء المسيح عيسى بن مريم، وأنهم هم الذين حاولوا أن يظهروه بمظهر الداعي إلى شق عصا الطاعة على قيصر، وكانوا على رأس المتآمرين عليه، ولم ينفكوا يدبرون له الكيد حتى حكم عليه بالصلب في زعمهم[1].

وتتضمن هذه الأناجيل فصولاً طويلة يوجه فيها المسيح عليه السلام تقريعاً شديداً إلى الفريسيين ويكشف عن كفرهم ونفاقهم والتوائهم وتحريفهم لتوراتهم وابتداعهم تعاليم وأحكاماً فاسدة ما أنزل الله بها من سلطان[2].

ولا نعلم على وجه اليقين متى تكونت هذه الفرقة. ومن أشهر ما قيل في هذا الصدد ما ذكره المؤرخ اليهودي يوسفيس Flavius Josrphus[3] من أنها تكونت في عهد يوناثان Jonathan الذي كان صديقاً حميماً لداود عليه السلام.

وكلمة الفريسيين تفيد في أصلها معنى المعتزلة أو المنعزلين. ولا يعرف بالضبط متى أطلق عليهم هذا اللقب، ومن الذي لقبهم به. ويظهر أن خصومهم الصدوقيين الذين سنتكلم عليهم في الفقرة التالية هم الذين أطلقوه عليهم. أما الفريسيون أنفسهم فكانوا يطلقون على أفراد فرقتهم لقب الإخوان أو الرفقاء Compagnons ويطلق كذلك على هذه الفرقة لقب الربانيين لأنهم يؤمنون بما جاء في أسفار التلمود التي ألفها الربانيون وهم أحبار هذه الفرقة وفقهاؤها.

فرقة الصدوقيين Saducéens[4]:

وهي الفرقة التي كانت تالية في الأهمية لفرقة الفريسيين طوال القرنين السابقين لميلاد المسيح وفي المرحلة الأولى اللاحقة للميلاد. وقد امتلأت صفحات التاريخ

---

(1) انظر مثلاً إنجيل متى، الإصحاح الثاني والعشرين والإصحاحات التالية له، إلى آخر هذا الإنجيل.

(2) انظر مثلاً الإصحاح الثالث والعشرين من إنجيل متى.

(3) فلافيوس يوسفيس، ولد سنة 37 بعد ميلاد المسيح أي عقب حادث الصلب الذي يزعمه النصارى، وتوفى سنة 95، وهو أقدم الباحثين في تاريخ اليهود ومن أشهرهم وأوثقهم.

(4) يذكر العلامة ابن حزم في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (الجزء الأول ص 82)، أن هذه الفرقة تنسب إلى رجل يسمى صدوق Sadoc.

اليهودي في هاتين المرحلتين بحوادث الخلاف والمشادات بين هذه الفرقة وفرقة الفريسيين.

ويرجع أهم ما تختلف فيه هذه الفرقة من ناحية العقيدة عن فرقة الفريسيين إلى الأمرين الآتيين:

1 ـ أنَّها لا تعترف إلا بالعهد القديم، وترفض الأخذ بالأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى (وأما أسفار التلمود فقد ألفها فيما بعد فقهاء الفريسيين كما تقدم بيان ذلك في الفقرة السابقة).

2 ـ أنها لا تؤمن بالبعث ولا باليوم الآخر؛ وتعتقد أن عقاب العصاة وإثابة المحسنين إنما يحصلان في حياتهم.

وتذكر أناجيل المسيحيين أن هذه الفرقة قد حاولت أن تستدرج المسيح حتى يوافقِهم على إنكار البعث واليوم الآخر وينضم إليهم في ذلك ضد الفريسيين، ولكنهم أخفقوا في ذلك، وبين لهم المسيح فساد ما يعتمدون عليه من أدلة في هذا الموضوع.

فقد جاء في الإصحاح الثاني والعشرين من إنجيل متى «أن الصدوقيين الذين ينكرون القيامة جاؤوا إلى المسيح قائلين له يا معلم لقد قال موسى إذا مات أحد وليس له أولاد ذكور يتزوج أخوه امرأته لتلد ولداً ينسب إلى أخيه ويخلد ذكره. فكان عندنا سبعة إخوة تزوج أولهم ومات بدون أنْ يولد له ولد ذكر، فتزوج أخوه امرأته ولم ينجب ابناً، وحدث مثل ذلك لجميع من بقي من الأخوة. فلأي أخ من هؤلاء الإخوة تكون هذه المرأة يوم القيامة. فقال لهم يسوع إنكم لتضلون وتجهلون أسفاركم وتشكون في قدرة الله. ألم تعلموا أن الناس في الدار الآخرة لا يزوِّجون ولا يتزوجون ويعيشون كما تعيش ملائكة الله في السماء؟! والعجب لكم كيف تنكرون قيامة الأموات مع أنكم تقرؤون في كتبكم أن الله قد قال أنا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ والله تعالى إله للأحياء ولا يصح أن يكون إلهاً للأموات. فلما سمعوا منه ذلك بهتوا من حجته، وسر الفريسيون لأنه أفحم الصدوقيين».

ويذكر العلامة ابن حزم أن هذه الفرقة كانت تقول إن العزير ابن الله[1] وهو من تسمِّيه أسفار اليهود عزرا Esdras. ولعل هذه الفرقة هي التي يعنيها القرآن الكريم إذ يقول: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: 30).

وتمتاز كذلك هذه الفرقة بحرصها على إقامة علاقات ودية مع الشعوب الأخرى، بينما كانت فرقة الفريسيين تنظر إلى غير الإسرائيلي نظرتها إلى عدو، بل كانت تنظر هذه النظرة إلى غير أفراد نحلتها من اليهود أنفسهم[2].

وكانت هذه الفرقة أقل كثيراً في أتباعها من فرقة الفريسيين، بل إن الأغلبية الساحقة من اليهود كانوا ينفرون من تعاليمها ويناجزونها العداء.

تعقيب وتعليق:

أطلق المؤلف على فرقة الأسينيِّن اسم الحسديين وهذا من الأخطاء الشائعة لدى الكثيرين من الباحثين.

فالحديث عن هذه الفرقة والذي استمر حوالي ثلاث صفحات يخص فرقة الأسينيِّن الذين عرف عنهم أنهم سكنوا منعزلين عن بقية اليهود حول مغاور قمران. وقد اكتشفت مخطوطاتهم عن طريق بعض رعاة عشيرة التعامرة الفلسطينية. وقد توصلت أجهزة الاستخبارات الصهيونية إلى هذه المخطوطات وسرق بعضها من متحف القدس قبل عام 1948، وأخفيت لأنها تنقض كل ما دونه كتبة التوراة.

ويقال: إن عدد أفراد هذه الطائفة بلغ حوالي أربعة آلاف رجل ليس بينهم نساء لأنهم كانوا يمنعون الزواج.

أما فرقة الحسيدية فهي حديثة ظهرت في أوربا الشرقية في القرن الثامن عشر وقد عرفت في جبال كاربتيان على حدود بولندا. وسبب ظهورها هو انحلال الطائفة اليهودية

---

(1) المرجع السابق ص82.

(2) ولعل هذه الفرقة هي التي يقول فيها القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آية 75 من سورة آل عمران). والأميون نسبة إلى الأمم وهم في اصطلاح اليهود غير بني إسرائيل.

في بولندا وجفاف النظام التعليمي التلمودي، ونمو الشقاق بين المتعلمين وغير المتعلمين ومؤسس هذه الفرقة هو إسرائيل اليعيزر. حيث أصبح الشخصية الرئيسية للعديد من الأساطير التي حيكت حول حياته وأعماله.

واتفق أعضاء الطائفة على أنه في عالم الروح وحده يمكن للإنسان أن يجد مراده. وقد شجع زعيم الطائفة طائفته على ألا يثوروا ضد رغباتهم.

وتحوي الحسيدية قدراً كبيراً من الخرافات منها مثلاً إصرارها على أن القوة المقدسة كامنة في حروف اسم الرب (يهوه) وإيمانها بظهور المسيح وتأكيدها الخاص بوجود الملائكة وعبادتها. وفيها أيضاً ما يتسم بالبدائية والسخف مثل اجتماعات الصلاة المرحة بصورة مخيفة والصخب والرقص العنيف الانتشائي والتمادي في الشراب ومازال أعضاء هذه الطائفة يُشاهدون اليوم ليس فقط في قاعات الصلاة الحسيدية في حي بروكلين بنيويورك فحسب بل أيضاً في الجمعيات الأميركية لأنصار التوراة.

وقد أصروا على طريقة خاصة للصلاة بهم وكذلك الذبح. وقد ظهر أول كتاب لهم في الصلاة عام 1803 على يد شنيور زلمان[1].

فرقة السامرية[2]:

تختلف هذه الفرقة عن الفرقتين السابقتين بأنها لا تؤمن إلا بالأسفار الخمسة التي تمثل القسم الأول من «العهد القديم» وسفر يوشع وسفر القضاة[3]، وتنكر بقية أسفار العهد القديم وأسفار التلمود. ونصوص الأسفار المعتمدة لديهم تختلف في كثير من المواضع عن النصوص المشهورة لهذه الأسفار المعتمدة عند غيرهم. وهم مثل الصدوقيين لا يؤمنون بالبعث ولا باليوم الآخر.

---

(1) المرجع: القوى الدينية في (إسرائيل)، د. رشاد عبد الله الشامي، عالم المعرفة الكويتية، العدد 186.

(2) لعلهم سموا بذلك لأن نحلتهم قد ظهرت في إقليم السامرة، وهو أحد أقاليم فلسطين. وكانت كلمة السامريين تطلق كذلك على جماعة من غير بني إسرائيل اعتنقت اليهودية وامتزجت بالإسرائيليين. وكان الإسرائيليون ينظرون إلى أفرادها على أنهم أحط منهم قدراً ومنزلة.

(3) انظر فقرات 3 ـ 6 من هذا الفصل والتعليق رقم 32.

وذكر ابن حزم أنهم «يبطلون كل نبوة كانت في بني إسرائيل بعد موسى ويوشع عليهما السلام، فيكذبون نبوة شمعون وداود وسليمان وأشعياء واليسع وإلياس وعاموس وحبقوق وزكريا وأرمياء وغيرهم، وأنهم يقولون: إن مدينة القدس هي نابلس، وهي من بيت المقدس على ثمانية عشر ميلاً، ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه. وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها»[1].

فرق الحسيديّين - الآسينيين[2]:

ظهرت هذه الفرقة حوالي القرن الثاني قبل الميلاد. وتختلف عن بقية فرق اليهود اختلافاً جوهرياً في عقائدها وعباداتها ونظمها وتقاليدها.

فمن أهم ما تمتاز به عن بقية فرق اليهود فيما يتعلق بالعبادات أنها تحرم الأضحية والقرابين، مع أن الأضحية والقرابين كانت تعتبر عند الفرق الأخرى من أهم العبادات، وقد خصص لها قسم كبير من سفر من أسفار توراتهم المزعومة وهو سفر اللاويين كما تقدم بيان ذلك[3]. ومن مميزاتها في العبادات كذلك أنه يكثر في شعائرها مناسبات الغسل والوضوء.

ومن أهم ما تمتاز به فيما يتعلق بالشرائع والنظم الإنسانية العامة أنها تنكر التفرقة العنصرية وتقرر مبدأ المساواة بين الناس في القيمة الإنسانية المشتركة وتحرص على التعايش السلمي بين جميع الشعوب.

فمن مبادئها العمل على إلغاء الحروب، وأن يعيش العالم في سلام دائم، ومجانبة الإضرارِ بالخلق وعدم إيذاء أي إنسان حتى لو كان ذلك لتربيته وتعويده الامتثال والطاعة، ومراعاة الصدق والأمانة والوفاء بالعهد حيال جميع الناس سواء في ذلك

---

(1) ص82 من الجزء الأول من كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم.

(2) كلمة الحسيديّين مأخوذة من كلمة حسيديم بمعنى المشفقين (الياء والميم علامة الجمع في العبرية). ــ وقد وصلت إلينا أخبار هذه الفرقة بفضل ما كتبه عنها فيلون (فيلسوف يوناني من أصل يهودي، ولذلك اشتهر باسم فيلون اليهودي، ولد حوالي 20 ق.م) وما كتبه المؤرخ اليهودي يوسيفيس (انظر تعليق 110).

وقد أشار كذلك إلى هذه الفرقة مشيداً ببعض نظرياتها العلامة مونتسكيو في كتاب روح القوانين، انظر:

Montesquieux: de l'Esprit des Lois, T. I, P. 106.

(3) انظر آخر رقم 1 وأول رقم 2 من فقرة 10 من هذا الفصل، ص30.

الإسرائيليون منهم وغير الإسرائيليين، وتحريم طرائق الكسب غير السليم وابتزاز أموال الناس واستغلال عوزهم وحاجتهم سواء في التعامل مع اليهودي أو غير اليهودي. وهذا على عكس الفرق اليهودية الأخرى التي كانت نظمها تقوم على التفرقة العنصرية وتبيح لأفرادها في علاقاتهم ومعاملاتهم مع غير اليهود مالا تبيحه في علاقاتهم ومعاملاتهم بعضهم مع بعض كما تقدم بيان ذلك[1].

ومن أهم ما تمتاز به فيما يتعلق بمبادئ الحرية أنها تحرم نظام الرق، وتحظر أن يملك الإنسان أخاه الإنسان، وأن يحرم أي فرد من حريته. وهذا على عكس الفرق اليهودية الأخرى التي كانت نظمها تقوم على الرق، وقد خصص للرق وأحكامه حيز كبير في أسفارهم[2].

ومن أهمِّ ما تمتاز به فيما يتعلق بنظام الملكية أنها تحرّم الملكية الفردية وتوجب أن تكون جميع الملكيات ملكيات جماعية. وقد طبقت مبادئها هذه على أفرادها الذين اعتزلوا المجتمع الإسرائيلي، وعاشوا جماعات حول شاطئ البحر الميت. فقد ألغوا بينهم نظام الملكية الفردية، وجعلوا جميع ما تحت أيديهم من أرض ومنقول وملابس وأطعمة ومتاع ملكاً جماعياً شائعاً يحفظ ما يزيد منه عن الحاجة العاجلة في مخازن عامة، ويشرف على شؤون إدارته وتوزيعه حراس يختارون من بينهم بطريقة الانتخاب العام المباشر، ويتفرغون كل التفرغ لأعمال وظيفتهم هذه، وحتى المنازل نفسها اعتبروها ملكاً جماعياً، وتركوها في كل قرية من قراهم مفتحة الأبواب لكل رفيق من جماعتهم، سواء أكان من أهل القرية أم قادماً من خارجها. ومن ثم يعتبر مذهب هذه الفرقة في شؤون الاقتصاد من أقدم المذاهب الشيوعية في العالم، ويعتبر أتباعها من أقدم المجتمعات الإنسانية التي أخذت بهذا المذهب وطبقته في حياتها بالفعل. وهذا على عكس الفرق اليهودية الأخرى التي كانت تجيز الملكية الفردية الخاصة وتحيطها بسياج من الحماية، وقد خصص لأحكام الملكية الفردية وطرق انتقالها وحقوقها وواجباتها حيز كبير في أسفارهم[3].

---

(1) انظر أوائل فقرة 11 من هذا الفصل.

(2) انظر صفحات 53 ـ 60 من كتابنا «قصة الملكية في العالم».

(3) انظر صفحات 48 ـ 64 من كتابنا «قصة الملكية في العالم».

ومن أهم ما تمتاز به فيما يتعلق بالشؤون المهنية أنها تحرم الاشتغال بالتجارة لما تبعثه في النفوس من جشع وحرص على جمع المال وجنوح إلى ابتزاز الناس، كما تحرم صناعة الأسلحة والذخيرة وسائر آلات الحرب لتنافر الغاية التي تقصد من هذه الصناعات مع أهم مبادئهم، وهو أن يعيش الناس في سلام دائم. وتحرم كذلك استخدام الذهب والفضة والتعامل بهما لما يبعثانه في النفوس من زهو وما يحملان عليه من جشع وشح. ولذلك اقتصرت أعمالهم على الزراعة وما تحتاج إليه ويتصل بها من صناعات. ــ وهي في ذلك تختلف اختلافاً جوهرياً عن سائر فرق اليهود، فقد كان من أهم مظاهر النشاط الاقتصادي لهذه الفرق شؤون التجارة وصناعة السلاح والتعامل بالذهب والفضة، بل لقد كانت هذه الفرق تنظر إلى هذين المعدنين نظرة تقرب من التقديس.

ومن أهم ما تمتاز به فيما يتعلق بنظام الأسرة أنها تحرم الزواج وتوجب التبتل والبعد عن النساء. وهذا على عكس الفرق اليهودية الأخرى التي كانت ترى أن الزواج واجب ديني لكل قادر عليه وأن من يحجم عن الزواج مع القدرة عليه لا يقل جرمه عن القاتل، لأن كليهما على حد تعبيرهم «يطفئ نور الله، وينقص ظله في أرضه ويبعد رحمته عن إسرائيل». بل لقد رأى بعض فقهائهم أن من بلغ العشرين وهو أعزب يجوز للقضاء أن يرغمه على الزواج[1].

ومن أهم ما تمتاز به فيما يتعلق بالحياة الفردية أنها تحارب الترف والحياة الناعمة وتدعو إلى الزهد والتقشف والبعد عن جميع متع الجسم، وتنظر إلى هذه المتع على أنها شرور، وتحرم شرب الخمور وأكل اللحوم وتوجب الاقتصار على الأغذية النباتية[2].

ومن هذا يظهر أن لهذه الفرقة تخالف في معظم ما تذهبُ إليه تعاليم العهد القديم والتلمود وعلى الرغم من أنها تعتبر نفسها، ويعتبرها المؤرخون من فِرَق اليهود ـ والحقيقة أنّه لا يربطها ببقية فرق اليهود إلاّ رابطة الجنس لأن أفرادها كانوا من بني إسرائيل.

ولم تعمر هذه الفرقة طويلاً، فقد انقرضت في أواخر القرن الأول الميلادي، أي أنها لم تعش إلا نحو قرنين أو ثلاثة قرون.

---

(1) انظر صفحات 5، 6، 55 من كتابنا «قصة الزواج والعزوبة في العالم».

(2) V. L. G. Rylands: Evolution of Christianity, p. 55 et suiv.

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن يوحنا المعمدان (وهو سيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام) كان من هذه الفرقة؛ ولكن لم يقدم أصحاب هذا الرأي بين يديهم دليلاً يعتد به.

فرقة القرائين أو العنانيين:
والممهدون لها وما انشعب عنها من طوائف وما حدث بينها وبين الربانيين من خلاف وخصومات

هي أحدث الفرق اليهودية جميعها. فقد أنشأها عنان بن داود أحد علماء اليهود في بغداد في أواخر القرن الثامن بعد الميلاد، في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (كانت خلافته من سنة 754 إلى سنة 775 بعد الميلاد)، أي بعد نشأة الديانة اليهودية بنحو عشرين قرناً. ويقوم مذهبها على التمسك بما جاء في العهد القديم وحده، وعدم الاعتراف بأحكام التلمود وتعاليم الربانيين والحاخامات. ومن ثم أطلق على فرقته اسم «العنانيين» نسبة إلى منشئها عنان بن داود. واسم «القرائين» نسبة إلى «مقرا» بمعنى الكتاب أو المكتوب L'Ecriture وهي الكلمة التي كانت تطلق عند اليهود على أسفار العهد القديم[1]؛ فمعنى القرائين المتمسكون بالكتاب وحده أي أسفار العهد القديم وحدها. ـ ولا يزال لهذه الفرقة أتباع كثيرون من اليهود في مختلف البلاد في العصر الحاضر.

والتمسك بما جاء في العهد القديم وحده أو بما جاء في بعض أسفاره وحدها ورفض ما عدا ذلك ليس جديداً كل الجدة في تاريخ الفرق اليهودية، فقد أخذت به من قبل ظهور القرائين بأمد طويل فرق يهودية قديمة منقرضة كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق[2]. ـ ومن ثم يعد مذهب القرائين في كثير من عناصره مجرد إحياء لمذاهب هذه الفرق.

وقد ألغى عنان جميع التشريعات التي قررها الربانيون مستندين في تقريرها إلى أسفار التلمود، وأدخل على كثير من تشريعاتهم التي استمدوها من فهمهم لنصوص

---

(1) وأما كلمة «العهد القديم» فهي تسمية أطلقت على كتب اليهود في العصور المسيحية للتفرقة بينها وبين ما اعتمده المسيحيون من أسفارهم التي أطلقوا عليها اسم «العهد الجديد» (انظر أول فقرة 3 من هذا الفصل).

(2) انظر مثلاً فرقة الصدوقيين وفرقة السامريَّة في صفحتي 64، 66.

العهد القديم تعديلات استمدها هو من اجتهاده الخاص ومن فهمه لنصوص هذا العهد. فقد انفرد في استنباط الأحكام من هذه النصوص بآراء كثيرة ذكر طائفة منها في كتابه الذي ألفه في تفسير التوراة (كتب موسى وهي الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم: أسفار التكوين والخروج والتثنية والعدد واللاويين). ـ غير أنه قد تجاوز أحياناً هذا النطاق، فقرر أحكاماً تتعارض مع نصوص صريحة لأسفار العهد القديم.

ومن أهم التشريعات التي خالف فيها الأحكام المقررة عند الربانيين معتمداً على اجتهاده الخاص في فهم النصوص أنه حرم زواج العم من ابنة أخيه وزواج الخال من ابنة أخته. ومن أهم التشريعات التي خالف بها نصوصاً صريحة من التوراة أنه سوى بين الابن والبنت في الميراث وقرر أن الزوج لا حق له في تركة امرأته[1].

وقد مهد لظهور فرقة القرائين بعض حركات إصلاحية دينية حدثت قبيل ظهورها وإن كان أصحابها لم يكتب لهم النجاح فيما دعوا إليه. ومن أهم هذه الإصلاحات ما نادي به سيرينوس وما نادى به عبوديا بن عيسى.

أما سيرينوس فهو يهودي من أهل سوريا نادى بإصلاحاته حوالي سنة 720 ميلادية، وجعل شعاره: «اتركوا تعاليم التلمود» وتبعه ناس كثيرون، وعظم شأنه، وامتلأ زَهْوَاً، حتى لقد أعلن أنه المسيح المنتظر، وكادت تحدث من جراء ذلك فتنة كبيرة في العالمين اليهودي، والإسلامي كليهما، فقبض عليه وقدم إلى الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك (كانت خلافته من سنة 720 إلى سنة 724 ميلادية) فرأى الخليفة، حسماً للفتنة، أن يسلمه إلى اليهود أنفسهم ليتولوا محاكمته. وانتهى بذلك أمره.

وأما عبوديا بن عيسى فهو يهودي من أصفهان نادي بإصلاحاته حوالي سنة 750 ميلادية، واتخذ الشعار نفسه الذي اتخذه سيرينوس، وهو عدم الاعتراف بالتلمود، وأدخل تعديلات كثيرة على الأحكام اليهودية المستمدة من التوراة نفسها، فألغى الطلاق، وجعل فرائض الصلاة أربعة بدلاً من ثلاثة في اليوم، وحرم أكل اللحوم وشرب الخمور.

---

(1) انظر القواعد التي كان يسير عليها الميراث عند اليهود في صفحتي 50، 51 من كتابنا «قصة الملكية في العالم».

ـ وقد أشار العلامة ابن حزم إلى هذه النحلة، وذكر أن أصحابها يقرون بنبوة عيسى ونبوة محمد عليهما السلام. وذلك إذ يقول: «والعيسوية هم أصحاب أبي عيسى الأصفهاني رجل من اليهود كان بأصفهان. وبلغني أن اسمه محمد بن عيسى. وهم يقولون بنبوة عيسى بن مريم ومحمد ﷺ. ويقولون: إنَّ عيسى بعثه الله عز وجل إلى بني إسرائيل. ويقولون أن محمداً ﷺنبي أرسله الله تعالى بشرائع القرآن إلى بني إسماعيل وإلى سائر العرب. كما كان أيوب نبياً في بني عيص وكما كان بلعام نبياً في بني مؤاب بإقرار من جميع فرق اليهود»[1].

وقد حاول عبوديا هذا هو وأنصاره استخدام القوة في فرض آرائهم على طوائف اليهود، فأخفقوا في محاولاتهم، ومنوا بعدة هزائم منكرة وانتهى بذلك أمرهم.

وقد نجح عنان فيما أخفقت فيه هذه الطوائف من قبل. ولكنه فتح باب الاجتهاد في فهم النصوص المقدسة، وسمح لكل قادر على ذلك أن ينشيء له مذهباً فرعياً خاصاً في نطاق الأصول العامة التي قام عليها مذهبه، فترتب على ذلك أن حدث الانقسام في فرقة القرائين نفسها، وانشعبت منها طوائف كثيرة من أشهرها طائفة بنيامين بن موسى وطائفة الأكبرية.

أما بنيامين بن موسى فهو فارسي من نهاوند، نادى بتعاليمه في أوائل القرن التاسع الميلادي. وهي في جملتها مستمدة من تعاليم عنان، مع بعض آراء تأثر فيها بمذاهب المعتزلة وفلاسفة الإسلام، وخاصة الفارابي وابن سينا. ومن أهم ما ذهب إليه في شؤون العقيدة أنه أنكر ما يوهمه ظاهر العهد القديم إذ يصور الذات العلية في صورة مجسمة تشبه صور الحوادث[2] وإذ يقرر أن الله تجلى لموسى في سيناء وكلمه، لما ينطوي عليه ذلك من حلول الله في المكان وإخراجه للصوت، وأنكر أن يكون الله قد تولى عملية الخلق في صورة مباشرة، لما ينطوي عليه ذلك من التغير والحركة ومن اتصال الله بالمادة، وذهب إلى أن الله خلق الملائكة، وهم كائنات روحية غير مادية، وهذه الكائنات هي التي خلقت العالم المادي. وهنا يبدو التأثر بمذهب الفارابي في نظرية «العقول» التي انبثقت عن الله تعالى كما

---

(1) ص 82 من الجزء الأول من كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم.

(2) انظر رقمي 1، 2 من فقرة 10 من هذا الفصل صفحات 26، 39.

ينبثق الضوء من الشمس، وتولت الإشراف على خلق الكائنات السماوية والأرضية وعلى مختلف شؤونها[1].

وقد انضم إلى نحلة بنيامين بن موسى عدد كبير من القرائين، فعظمت مكانته وبلغ في نفوس أتباعه منزلة تقرب من منزلة عنان بن داود المنشئ الأول لفرقة القرائين.

وأما فرقة الأكبرية فقد أنشأها عالمان يهوديان من مدينة «أكبر» بالقرب من بغداد، حوالي سنة 840م، وهما موسى واسماعيل الأكبريان. وأهم ما تمتاز به هذه الفرقة عن بقية فرق القرائين أنها لا تؤمن إلا بأسفار موسى الخمسة (أسفار التكوين والخروج والتثنية واللاويين والعدد) ولا تعترف ببقية أسفار العهد القديم. ومذهبها هذا يعد في جملته إحياءً لمذهب السامرية الذي تكلمنا عليه فيما سبق[2].

هذا، وقد تفاقم الخلاف بين القرائين والربانيين، وهما أهم الفرق اليهودية الباقية إلى العهد الحاضر، وشنت كلتا الطائفتين حرباً عنيفة على الطائفة الأخرى، فحكمت كلتاهما على الأخرى بالكفر، واستقلت كلتاهما بمعابد خاصة لا يسمح بدخولها لغير أتباعها.

ويروي لنا التاريخ كثيراً من الخصومات العنيفة التي حدثت بين هاتين الطائفتين في كثيرٍ من البلاد التي كان يوجد فيها أتباع لكلتيهما. ومن أشهر هذه الخصومات ما حدث بينهما في مصر في أيام الملك الفاطمي الظاهر بن الحاكم بأمر الله (تولى الخلافة الفاطمية من 411 إلى 427هـ 1020 إلى 1035م). وكان سبب هذه الخصومة أن المشرف اليهودي على قصّابي اليهود كان من طائفة الربانيين. وللقرائين في شؤون الذبائح مذهب يختلف عن مذهب الربانيين. فمن ذلك أنهم يحرمون ذبح أنثى الحيوان في أثناء حملها بينما يجيز ذلك الربانيون. فحدث من جراء ذلك احتكاكات عنيفة بين الطائفتين. وطلب القراؤون أن يسمح لهم بحوانيت خاصة للحوم الأنعام والطيور تخضع لتفتيشهم هم ولا تَخضَع لتفتيش محتسب الربانيين. وأن يسمح لهم بفتح حوانيتهم في أعياد الربانيين

(1) انظر تفصيل هذه النظرية في كتابنا «فصول من آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي» صفحات 40 ـ 42 الطبعة الثانية.

(2) انظر فرقة السامرية في فقرة 13 من هذا الفصل.

التي لا يعترفون هم بمواقيتها (فلكل فرقة تقويمها الخاص، ومن ثم اختلفت مواقيت الأعياد عند كلتيهما). وقد استجاب الخليفة الظاهر لمطالب القرائين وأصدر مرسوماً في 11 جمادى الأولى سنة 415 هـ 1024 ميلادية هذا نصه:

«من تتبع عاداتكم، واستمراركم في تقاليدكم التي أخذتموها عن دياناتكم بدون عائق يقوم من طائفة ضد الأخرى أو قيام معاملة خشنة بينكما، فهذا يدعو إلى السماح لكل طائفة بأن تعيش وتعيِّدَ كما تهوى، مع تمكين كل طائفة من بيع أو شراء ما تشتهي، وأن تحتفل بعيدها كما تريد ومتى ترغب بكامل حريتها ومطلق إرادتها. وأحذر الطائفتين من التدخل في شؤون بعضهما أو إحداث شغب أو مضايقة بعضهما. إن الأمان مكفول لكم جميعاً. وعليكم عدم تمكين شرير بينكم من الإتيان بشيء ممنوع. وعليكم تجنب المناقشات التي تؤدي إلى سوء العاقبة. وعليكم المحافظة على ذلك. والعقوبة ستحل بكل فرد يتجاوز حدوده ويأتي بأعمال محرمة. فمثل هذا الشخص سيعاقب عقوبة شديدة وسيكون مثالاً لغيره حتى لا يحتذيه أحد. كذلك يحرم التدخل في شؤون طائفة القرائين في معابدهم الخاصة بهم وحدهم».

«وهذا الأمر صادر من أمير المؤمنين. فعليكم العمل على تنفيذه واحترامه، وعلى أمير الجيوش ـ ساعده الله ـ أن يساعد على تنفيذه، وعلى رؤساء الأقاليم العناية العادلة بالطائفتين، وعلى الحكام إصدار الأوامر الخاصة بوجوب العناية والمحافظة على أفراد الطائفتين والعمل على عدم اضطهادهم».

«ليحترم هذا الأمر بواسطة الذين كتب لهم إن شاء الله».

«حرر في يوم الأربعاء 11 جمادى الأول عام 415 هجرية».

ومن هذا يظهر مبلغ سماحة الإسلام وسماحة الحكومات الإسلامية في معاملة أهل الديانات الأخرى وتذليل الفرص لأتباعِها في مزاولة عباداتهم وأداء شعائرهم. وهذه أظهر سمة من سمات الكمال لديننا الإسلامي القويم[1].

---

(1) انظر كذلك في تفاصيل فرق اليهود «الفصل في الملل والأهواء والنحل» للعلامة ابن حزم ص82 وتوابعها من الجزء الأول.

تعقيب وإيضاح:

تعاني فرقة القرائيين في الكيان الصهيوني من التمييز العنصري الـديني والـسياسي، فاليهود الأرثوذكس وهم الغالبية يمنعون الزواج من قرائية كونهم يعتـبرون هـذه الفرقـة أقرب إلى الإسلام.

ويعاني أفراد الطائفة من الفقر والعيش في مناطق فقيرة جداً بـسبب سـوء المعاملـة من المجلس الأعلى للحاخامات ومن سياسة الدولة العنصرية.

obeikandl.com